أكثر الروايات مبيعاً فى العالم

أجاثا كريستى

Looloo
www.dvd4arab.com

الأربعة الكبار

مكتبة النافذة

الفصل الأول

إنه أمر يدعو للدهشة والاستغراب أقصد هؤلاء الذين اغتربوا عن الوطن سنوات طويلة وحين عادوا إليه كانت مشاعرهم لا تهفو إليه ولا تتلهف عليه كأنهم غابوا عنه ساعة أو بعض ساعة.

أما أنا.. آه يا ويلتي من هذا الحنين الذي يكوي ضلوعي وهذا الشوق الذي أدمى قلبي حنينا لوطني الغالي وترابه العزيز على نفسي، وها أنذا أجلس مستندا بظهري على سياج الباخرة وهي تمضي مسرعة على صفحة مياه البحر.. أوه أنني أرى الآن صخور جبل دوفر تعانق السماء، وعواطفي تشتعل وأنا أدنو على سطح السفينة من مرافئ الوطن كفتى مراهق يحلم وينتظر على جمرات الشوق لقاء حبيبته.

لقد حان الوقت لكي أقص عليكم قصتي:

أنا أمضيت مع زوجتي الحبيبة نحو عامين في مزرعة داخل إحدى قرى الأرجنتين، عشنا فيها أجمل أيام العمر ولحظاته، ثم قررت فجأة العودة إلى وطني انجلترا لقضاء شهرين أو ربما ثلاثة لكي ألتقي فيها مع صديقي العزيز هيركيول بوارو المعروف في أوربا بأنه أعظم شرطي سري في العالم أجمع، في بداية الأمر فكرت أن أخبره هاتفيا أو تلغرافياً بموعد وصولي، إلا أنني قدرت الأمر في نفسي ورفضت إخباره بشأن عودتي لكي تكون مفاجأة سارة له أعرف مقدما أنها ستسعده وستسره، والحقيقة أنني

أستمتع بوجودي معه ولسماعي منه حكايات ومغامرات تفوق الخيال رغم واقعيتها، وتخيلت لقاءنا المفاجئ معا وما يترتب عليه من نظرات الدهشة وأحضان الشوق وقبلات الفرحة وتساؤلات كوميدية دون أن يلقى أحدنا جوابا لها.

وأرست الباخرة على رصيف الميناء ولم أتحمل الانتظار ولكنني أسرعت نحو حقائبي وقصدت درجات سلم الباخرة في عجلة من أمري وودت أن أتخطاه في قفزة واحدة.

بعد ذلك اتجهت غريزيا إلى أحد الفنادق القريبة من الميناء واستأجرت سيارة انطلقت بها إلى منزل صديقي بوارو الذي أتلهف على رؤيته واتطلع إلى مجالسته، بعد غياب طويل قابلتني خادمته وصافحتها في سرعة وقفزت على درجات السلم وضربت باب غرفته ضربا خفيفا وسمعت صوته الجميل يقول في هدوء: «ادخل» ودلفت إلى داخل حجرته لأجده أمامي وسرعان ما سقطت منه حقيبة يد صغيرة كان يمسك بها وهو ينظر ناحيتي في ذهول قائلا في طرب:

- أوه أهو أنت يا ما ستنجز - أيها الصديق الحبيب

ثم حاصرني بذراعيه وطوقني لنتبادل القبلات والأحضان وانطلقت الكلمات من أفواهنا كالسهام عبارات كانت سريعة غير مفهومة من فرط المفاجأة والفرحة، نعم كانت الأسئلة كثيرة والأجوبة تكاد تكون معدومة والعبارات لا معنى لها والكلمات غير مفهومة، إنها علامات الشوق والحب واللوعة والمفاجأة.

وبعد لحظات سيطر علينا الهدوء وقلت له:

- كم تمنيت أن أكون بجوارك كما كنت من قبل

ولاحظت مسحة من الأسى ترتسم في التو على وجهه وراح يقول: أوه يا إلهي.. كم تمنيت أنا ذلك أيضا ولكن ألم تلاحظ شيئا حولك؟

نظرت حولي في لهفة فوجدت عدة حقائب متراصة جنبا إلى جنب في مشهد لا تخطئه العين ويفهمه العقل فقلت له:

- هل أنت على سفر يا عزيزي بوارو؟

فهز رأسه بالإيجاب وقال: نعم إلى أمريكا الجنوبية.

صرخت: ماذا تقول؟

قال: نعم كم تمنيت أن أسافر إليك في الأرجنتين دون أن أخبرك لكي تكون مفاجأة سعيدة لك فأنا اشتقت لرؤياك كثيرا.

قلت: ومتى ستسافر؟

نظر في ساعته وقال: بعد ساعة من الآن.

- لكنك كنت تكره سفر المحيطات فلماذا تغير رأيك الآن؟

جلس بوارو على أحد المقاعد وقال:

- سأخبرك بسبب تغيير فكرتي.. أتعرف من هو أغنى رجل في الكرة الأرضية؟

- هناك أناس يتنافسون على هذا اللقب.

- حسنا ولكن هناك من بينهم من يتصدر القائمة وهو

أيب رايلاند.

- أوه أنت تقصد إذن ملك الصابون وهو فعلا أغنى من روكفلر ولكن ما علاقة ذلك بسفرك المفاجئ؟

قال بوارو: إن سكرتيرة هذا الرجل الثري اتصلت بي هاتفيا وأخبرتني أن إحدى شركات ريلاند تتعرض لعملية اختلاسات منظمة وتصرفات غير مشروعة، ورغم تدخل رجال الشرطة الأرجنتينية عشرات المرات إلا أنهم فشلوا في معرفة من الذي يقف وراء هذه العمليات القذرة، وحين طلبت منها أن توافيني بما لديها من معلومات وحقائق لكي أدرس الموقف وأنا في لندن رفضت وأكدت أن المليونير رولاند قرر أن يمنحني مكافأة لا تقل عن ربع مليون فرنك إذا أنا سافرت إلى ريو ودرست الموقف هناك، والأكثر غرابة من كل هذا أنها جاءت إلى هنا وألقت أمامي مبلغا لا يقل عن خمسين ألفا من الفرنكات كمقدمة للمبلغ الكبير حال الانتهاء من المهمة.. تخيل يا صديقي مبلغاً كهذا أنه ثروة هائلة لم أحلم بها، والحق أنني لم أتردد في السفر إلى هناك لهذا اخترت السفر أولا من أجل العمل والحصول على هذا المال، وثانيا من أجل أن ألتقي بك مفاجأة خاصة أنني لم أرك منذ عامين وهي فرصة طيبة، وهكذا وافقت دون تردد فهي كما يقال ضرب عصفورين بحجر واحد وعلى الفور بدأت أتحرى الأمر وقبلت العرض.

- وبما أنك كنت هناك ماذا تعرف عن عبارة «الأربعة الكبار»؟

قلت على الفور: إنه مصطلح سياسي تردد في أثناء مؤتمر الصلح في فرساي، والمقصود بالأربعة الكبار رؤساء الدول الأربع الكبرى التي انتصرت في الحرب العالمية الأولى.

فقال بوارو: نعم هذا صحيح ولكن ما أقصده أن هناك عصابة تسمى «الأربعة الكبار» تهدف إلى السيطرة على العالم بطريقة ما، والآن أنا في مرحلة جمع المعلومات عن أسس هذه العصابة

ونظر بوارو إلى ساعته وقال في ضيق:

- يجب أن أغادر المنزل فقد حان الوقت للرحيل.

- ولماذا لا تقوم بإلغاء سفرك لكي نمضي معا قرابة شهرين أو ثلاثة في لندن على أن نعود معا إلى أمريكا الجنوبية.

- لقد وعدت، وبوارو إذا وعد أوفى ثم لا تنس الربع مليون.

أثناء حديثه ترامى إلى مسامعي صوت صادر من مخدعه فقلت: ماذا؟ ألديك زائر في مخدع نومك؟

نهضت من مكاني واتجهت إلى باب الغرفة فتجمدت مكاني حيث شاهدت مقبض الباب يتحرك.

وفي ثوان وجدت أمامي رجل يكسوه التراب والوحل من شعر رأسه وحتى أطراف أصابعه.

حملق الرجل في وجهنا ثم ترنح وسقط على الأرض، وأسرع بوارو نحوه وقد جثا على ركبتيه وصببنا على وجهه

ماءا باردا ثم حملناه معا إلى الأريكة.

وبعد لحظات فتح الرجل عينيه وطاف ببصره حول أركان الغرفة فسأله بوارو في صوت هامس:

- ماذا تريد يا عزيزي؟ لماذا أتيت إلى هنا؟

- نعم.. أنا بوارو.

قال الرجل في بطء شديد:

- مستر هيركيو بوارو، ١٤ شارع فاراوي.

ويبدو أن الرجل لم يدرك ما ذكره من قبل فعاد يقول:

- مستر هيركيول بوارو ١٤ شارع فاراوي.

وراح بوارو يلقي على الرجل العديد من الأسئلة والرجل لا يردد سوى عبارة واحدة «مستر هيركيول بوارو ١٤ شارع فاراوي؟

وصاح بوارو يقول: هلا أحضرت الطبيب فوراً؟

وبعد دقائق كان الطبيب يفحصه.

وتدخلت قائلا: أهي حمى مخية أم ماذا؟

فعلق الطبيب: كلا أنها صدمة عصبية فقد ترسخت في ذهنه هذه العبارة التي لا يتذكر غيرها.

وتناول الطبيب ورقة وقلم ناولهما للرجل قائلا:

- ربما كتب لنا أي شيء، فكم واجهنا حالات مشابهة لذلك كثيرا

وأمسك الرجل بالورقة والقلم وراح يخط بسرعة ثم سقطت الورقة منه ولحق بها القلم على الأرض.

وتناول الطبيب الورقة وتأملها وهو يقول:

- لا يوجد بها سوى الرقم (٤) وقد كتبه عدة مرات ربما أراد أن يكتب ما ينطق به لسانه فعجز وفشل.

وأردف الطبيب قائلا: إن هذه الحالة أتطلع إلى دراستها بعناية ولكنني الآن على موعد في المستشفى ولهذا أرجو أن تعتنوا بصحته ريثما أعود.

فذكرت له أن بوارو صاحب المنزل في طريقه إلى الميناء للسفر خارج البلاد وأنا سأصحبه لوداعه، فقال:

- لا بأس أنه سيظل نائما قرابة الثماني ساعات وسوف أعود قبل أن يتنبه من نومه وبادر إلى الانصراف وانتهى بوارو من إعداد حقائبه ثم خاطبني قائلا:

- هيه.. إن لديك عملاً شاقاً يا عزيزي هاستنجز، وكنت أتمنى أن أظل بجوار الرجل الغامض لمعرفة أسراره ولكنني أعهد به إليك لعلك تستطيع فك طلاسمه ولكن ما حيلتي إذا كانت السفينة على وشك الإبحار في موعدها المقرر.

فقلت: اطمئن سوف أبذل قصارى جهدي للوصول للحقيقة.

وتأملت الورقة التي خط عليها الرجل الغامض بالقلم ثم قلت:

- لو أنني كنت أديبا لكتبت رواية تحت عنوان «لغز الأربعة الكبار»

وما إن نطقت بهذه الكلمات حتى هب الرجل الغامض من سباته قائلا في حدة: لي شانج بين

ونظر إلى بوارو وأردف الرجل يقول في هدوء:

- إن لي شـانج بين هو العـقل المدبر لهـؤلاء الأربعـة الكبار.. إنه القوة الدافعة لهذا أطلقت عليه رقم (١) أما رقم (٢) فهو يعتبر قوة المال وهو معروف بعلامة الدولار وأظن أنه أمريكي، أما رقم (٣) فصاحبته امرأة فرنسية الجنسية وليست لدي معلومات عنها بأكثر من ذلك.. أما رقم (٤)

وهنا تعثرت الكلمات في حلقه وقال له بوارو في إلحاح:

- ورقم (٤)... ؟ تكلم ماذا تعرف عنه؟ أرجوك تكلم.

ولكن الرجل لا ينطق وإنما بدت عليه علامات الإجهاد وبعد دقائق تمكن من وعكته قائلا:

- رقم (٤) هو «المدمر».

ثم ترنح وسقط مغشيا عليه وصاح بوارو: هيا نحمله إلى مخدعي

ثم أردف قائلا: يجب ألا أفقد فرصتي في اللحاق بالباخرة.

وتركنا المريض في عناية الوصيفة مسز بيرسون وركبنا القطار وغـرق بوارو في صـمت طويل دون أن ينطق لي بكلمة واحدة والقطار ماض في مسيرته إلى محطة الميناء

وكان مفروضا ألا يتوقّف القطار في أية محطة غير محطة الميناء ولكن حدث عطل مفاجئ أرغم القطار على التوقف لحظات، وفجأة رأيت بوارو يثور وينفعل وهو يقول:

- آه.. أنني غبي.. مامن شك أن القطار أوقفته بركة القديسين، هيا أسرع يا ها ستنجز فلنأخذ الحقائب

ولنقفز قبل أن يتحرك القطار.

وبعد لحظات وجدنا أنفسنا في الطريق حاملين حقائبنا وسألت بوارو:

- ماذا تقصد بهذا القرار يا بوارو؟

فأجاب في ضيق:

- كل مـا أسـتطيع أن أذكـره لك أن الوحي هبط عليّ فأوحى لي وأضاء لي الطريق المظلم.

فتساءلت في لهفة: إلى أين يا بوارو؟

أجاب في سعادة: إلى البيت طبعا.. لقد قررت البقاء.

★ ★ ★

الفصل الثاني

وبينما كنا في طريق العودة إلى بيت بوارو راح يخاطبني من أجل إرضاء فضولي وقال:

- إنني كنت أحمق.. ولكن الخدعة كشفتها في اللحظة الأخيرة إنهم أرادوا أن يبعدوني عن الطريق وقد نجحوا بذكاء ومهارة فقلت متسائلا: تقصد من هم الذين فعلوا ذلك؟

- أقصد الأربعة الكبار، الصيني والأمريكي والفرنسية والرابع المجهول.

- أسأل الله ألا نعود قبل فوات الأوان.

- تقصد أن هناك خطرا يحيط بزائرنا المريض الغامض؟

- بكل تأكيد.

وقابلتنا الوصيفة بدهشة لعودتنا المفاجئة وأسرع بوارو إلى مخدعه حتى ناداني قائلا:

- أوه أسرع يا هاستنجز إن الرجل الغامض قد مات.

وأسرعت إليه وكان واضحا أن الرجل مات عقب إنصرافنا وغادرت المنزل لإحضار الطبيب، أقصد أي طبيب، لأنني أعلم أن الدكتور ريدجواي في المستشفى كما أخبرنا هو بدوره.

وأحضرت طبيباً فعلا سأله بوارو عن سبب الوفاة.

فقال: من الصعب أن أحدد بدقة سبب الوفاة وإن كنت

أتصور أنه مات مخنوقا بالغاز.

- ولكن كيف وليس لدينا هنا سوى الكهرباء؟

قال الطبيب: إنه فارق الحياة منذ ساعتين فقط وأرى من واجبك يا مسيو بوارو أن تبلغ الشرطة.

وغادر الطبيب على الفور وراح بوارو ناحية الهاتف لإبلاغ صديقه المفتش جاب بما حدث.

وأثناء كل هذه الأحداث جاءت مسز بيرسون تخطرنا بأن رجلا من مستشفى المجانين في هانويل يطلب مقابلة بوارو فوافق في التو على مقابلته.

صافحنا الرجل ثم قال لنا وهو يلهث أنفاسه:

- أحد مرضانا هرب ليلة أمس يا سيدي وأظنه يقيم هنا في منزلكم.

فقال بوارو في بطء: إنه كان هنا بالفعل.

صاح مندوب المستشفى في فزع:

- اللعنة.. أهرب مرة أخرى يا سيدي؟

- كلا.. إنه مات.

وانفرجت أسارير الرجل وقال:

- أحقا؟ إن كان هذا صحيح فقد أراح واستراح.

- هل كان مجنونا من النوع الخطير؟

- أتقصد أنه كان يميل إلى القتل؟ كلا.. بل كان مسالما لا يؤذي أحدا، ولكنه يعاني من عقدة الاضطهاد وكانت رأسه مزدحمة بأوهام وأساطير تدور جميعها حول منظمات سرية في بلاد الصين أنها اختطفته وحبسته

وأنها تتعقبه لكي تتخلص منه.

وسأله بوارو: كم قضى من الوقت في مستشفى هانويل؟

أجاب الرجل: أظن منذ عامين فقط.

قال بوارو: ألم يخطر ببال أحد أن الرجل ربما كان عاقلا؟

انفجر مندوب المستشفى ضاحكا وقال:

- إن كل النزلاء في المستشفى يظنون أنهم عقلاء ثم كيف كان عاقلا وهو يعيش بيننا عامين تحت إشراف طبي عالي المستوى؟

واصطحب بوارو مندوب المستشفى إلى مخدعه لمشاهدة الرجل.

فقال: أوه.. إنه هو فعلا.. سوف أسعى لنقل الجثة فورا

- ثم استأذن في الانصراف وبعد دقائق وصل رجال شرطة اسكوتلاند يارد المفتش جاب وبعد التحية والمجاملات المألوفة صعد به بوارو إلى مكان الجثة وسأله بوارو:

- هل سبق لك يا عزيزي جاب أن شاهدت هذا الرجل من قبل؟

انحنى جاب ليتفحص وجه الرجل ثم قال:

- نعم إن وجه هذا الرجل مألوف لدي.. وليس غريبا علي.. أنني أعرفه إنه.. إنه مايرلنج.

- من يكون مايرلنج هذا؟

- هو أحد رجال المخابرات السرية.. لقد سافر إلى روسيا منذ حوالي خمسة أعوام ولم نسمع عنه

شيئا بعد ذلك.

ثم اعتقد أن البلاشفة الشيوعيين اغتالوه.

وبعد أن انصرف المفتش جاب قال لي بوارو:

- الحقائق كلها تتجمع وتتوافق.

ثم سألني: هل قمت بتهوية الغرفة يا هاستنجز بعد نقل الرجل؟

فقلت: كلا.. إنني لم أفتحها وأظن أنها كانت مغلقة تماما.

قال: مغلقة؟ كيف وهي الآن مفتوحة على مصاريعها ما الأمر إذن؟

قلت في حذر: لعل أحدهم دخل عن طريقها.

فقال بوارو: ربما، ولكن إذا كان ذلك كذلك فلماذا لم يكتفي بنافذة واحدة، ألا يبدو هذا تصرفا يدعو للدهشة؟

ثم اتجه بوارو إلى غرفة الضيوف ووجدها هي الأخرى مفتوحة وقد كانت موصدة تماما وهذا غريب حقا.

وعاد بوارو إلى الجثة ليتأمل وجه الرجل وقال في ثقة:

- لقد كان هذا الرجل مكمم الفم ثم تعرض للسم القاتل.

قلت: لا تتعجل فالطبيب الشرعي لن يفلح في كشف الحقيقة فقد أمطروه بحامض البروسيك المركز.. ثم إن القاتل قام بفتح النوافذ وغادر المكان في الحال.. وحامض البروسيك سم ناقع قاتل قوي سريع المفعول، لكنه للأسف لا يترك أثرا عند تشريح الجثة.. ورائحة هذا الحامض

نفاذة تشبه رائحة اللوز المر.. من هنا كان القاتل شديد الحذر حيث قام بفتح النوافذ حتى تتلاشى الرائحة بحيث لا تترك أثرا لمعرفة سر موت الرجل، ليظن الطبيب أن الوفاة طبيعية.

واستطرد بوارو قائلا: إذن هذا الرجل من المخابرات السرية وكان في مهمة عمل في روسيا منذ خمس سنوات، لكن أخباره انقطعت فجأة.

قلت: لكن لا تنس أن العامين الآخرين عاش خلالهما نزيلا في مستشفى المجانين، فأين كان خلال الأعوام الثلاثة؟

وفجأة أمسك بوارو بذراعي وصاح يقول:

- أوه يا هاستنجز انظر إلى الساعة.. انظر إلى الساعة

ونظرت في التو إلى الساعة الموضوعة على رف المدفأة فقال بوارو:

- لقد عبث أحدهم بها وأوقف عقاربها على رقم (٤) أنه (المدمر) رقم ٤، أقصد أحد أفراد عصابة الأربعة الكبار، معنى هذا أن رقم (٤) كان هنا في بيتي يا هاستنجز في بيت بوارو إنه يتحداني، اللعنة.. اللعنة.

وانطلق بوارو إلى الهاتف وأجرى اتصالا مع مستشفى المجانين وقال: لقد علمت أن أحد المجانين هرب من المستشفى ليلة أمس فهل هذا صحيح؟ ماذا تقول؟ أنت متأكد من ذلك؟ أشكرك أشكرك

ووضع السماعة وهو ينظر ناحيتي قائلا:

- هل سمعت يا هاستنجز؟ لم يهرب أحد من المستشفى قط.

- كيف ومندوب المستشفى كان هنا؟

- أنه المدمر رقم ٤ وليس مندوب المستشفى.

ونظرت إليه في دهشة وقد شعرت بغصة في حلقي ثم بعد ثوان قلت:

- لقد كشف نفسه لنا بغبائه وسيسهل علينا الإمساك به

- أتظن ذلك؟ ما الذي نعرفه عن المندوب سوى أنه رجل طويل القامة أحمر الوجه.. ذو شارب كثيف وصوت أجش، وكل هذه الملامح من السهل تغييرها، ثم أنت لا تعرف شيئا عن أنفه وأذنه، ومن الممكن أن يتردد علينا بعد تغيير ملامحه ولن نعرفه.

- أتعتقد أن لديه الشجاعة للعودة إلى هنا مرة أخرى؟

- اسمعني جيدا يا هاستنجز، إن ما يحدث الآن مباراة حامية الوطيس بين بوارو وبين عصابة الأربعة الكبار لقد دبروا أمر إزاحتي من الطريق وأبعدوني إلى أمريكا الجنوبية لكي يتفرغوا لضربتهم القاضية، ولكنني سأظل هنا رغم أنفهم جميعا وسوف نرى لمن تكون الغلبة.

★ ★ ★

الفصل الثالث

بعد زيارة المندوب المزيف - (رقم ٤) بقيت في المنزل لا أغادره على أمل أن يعود مرة أخرى لاستعادة الجثة، فمن المؤكد أنه يظن أننا لم نكتشف أمره وشخصيته، لكن بوارو وكعادته سخر من فكرتي وقال لي:

- وما هي حاجته في أن يستعيد الجثة؟

قلت: لكي يتخلص من دليل إدانته.

قال: وما هو دليلنا ضده..؟ إن أحدا هنا لم يشاهده وهو يتسلل لقتل الرجل وحامض البروسيك أعدم كافة أسباب الوفاة.

- إذن لماذا جاء لزيارتنا؟

- لعله أراد أن يتأكد من وفاة الرجل وربما أراد رؤية خصمه القادم بوارو.

- وماذا ستفعل؟ هل ستخبر الشرطة بما لديك من معلومات أم أنك ستدخرها لنفسك لكي تعمل بمفردك من خلالها؟

- ما فائدة أن أذكر لهم أوصاف رقم ٤، هل سيسرعون في إلقاء القبض عليه إنني سأقنع القاضي أن الوفاة كانت قضاءً وقدراً لا شبهة تدور حولها.

والغريب أن بوارو كان على حق فلم يعد هناك أثر لرقم ٤ على مسرح الأحداث وفي أحد الأيام استيقظ بوارو مبكرا وألح عليّ أن أصحبه في مهمة عاجلة أبى أن يذكر لي تفاصيلها أو الهدف من ورائها.

والواقع أن الغموض والكتمان من الصفات التي يتحلى بها بوارو دائما فهو لا يذيع سرا إلا قبيل اللحظة الأخيرة.

وانتهينا أخيرا إلى إحدى ضواحي لندن الجنوبية وهنا فقط قال لي:

- إننا يا هاستنجز قاصدون الآن الرجل الوحيد في إنجلترا العالم ببواطن الأمور السرية في بلاد الصين.

- أوه حقا يا بوارو؟ من هو إذن هذا الرجل؟

- إنه شخص لا تعرفه.. يدعى جون أنجلز.. كان يعمل موظفا مدنيا في وزارة الداخلية، والآن تقاعد من عمله وهو الوحيد الذي يستطيع أن يزودني بأية معلومات عن «لي شانج يين»

وقابلنا الرجل الذي صافحنا بترحاب شديد وقال:

- لقد عرفت من هالتري أنك تريد أن تسألني عن بعض الأمور الغامضة وأنا كلي آذان مصغية فهيا سل ما شئت لعلّي أنفعك.

سأله بوارو مباشرة دون لف أو دوران:

- شكرا يا سيدي إنني أسأل هل تعرف شيئا عن رجل صيني يدعى لي شانج يين؟

فغمغم الخبير ببواطن الأمور قائلا: هذا غريب.. ولكن كيف تهيأ لك أن تسمع باسم هذا الرجل؟

- إذن أنت تعرفه؟

- نعم قابلته مرة واحدة.. وأعرف أنه رجل ذو قوة ونفوذ ومهابة والصين تعمل له ألف حساب فهو وراء كل المصائب.

- تقصد وراء أي شيء؟

- نعم وراء كل الثورات وأحداث الفوضى والشغب التي تعم العالم والاغتيالات السياسية، بل قيل إن معظم ساسة العالم ألعوبة في يده لأنه المحرك الأساسي لكل شيء في بلادهم.

وأردف جون أنجلز يقول: إنني أعتقد أنه مصاب بداء العظمة والنفوذ وحب السيطرة على الآخرين ذلك المرض الذي تمكن من العديد من الزعماء أمثال هتلر وموسوليني وبونابرت وإن كان الفارق بينهما هو أن هؤلاء يسعون لفرض نفوذهم من جيوشهم، أما هو فيسعى لفرض نفوذه من خلال عقله العبقري ولديه أجهزة حديثة وجبارة تساعده في تدبير شئونه الإجرامية.

سأله بوارو: هل له نشاط في بلاد الصين أيضا؟

قال انجاز: رغم أنني لا أملك دليلاً على ما سأرويه لك إلا أنني متأكد مما سأذكره أنه رجل الأحداث في الصين وحكام الصين ألعوبة في يده يحركهم كعرائس على مسرح أطفال كيفما شاء ووقتما أراد، وهو مقيم في قصر منيف عريق في العاصمة الصينية بكين ولا يجرؤ أحد على معارضته.

وأردف أنجلز يقول: منذ بضعة أعوام تمرد على سلطانه أربعة رجال من ذوي النزاهة والأمانة فماذا كان مصيرهم؟ ماتوا جميعا، إن أحدهم كتب مقالا ذكر فيه اسم شانج يين وأشار إلى دوره في أحداث الشغب بالعاصمة بكين، وبعد

ساعات مات الكاتب مقتولا ولم يعثر أحد على القاتل، أما الثاني فقد مات بداء الكوليرا رغم عدم وجودها في البلاد، والثالث مات مسموما والرابع وجدوه ميتا في فراشه فقد كانت جثته متفحمة إثر تيار كهربائي صعقه.

فقال بوارو: وأمام كل هذا ظل شانج بعيدا عن دائرة الاتهام؟

قال انجاز: رغم كل الدلائل التي تحاصره ظل حرا طليقا.. ولقد زارني أحد رجاله الذين يتخصصون في الكمياء ووجدته في حالة انهيار عصبي واعترف أمامي أنه أجرى تجارب جرثومية على بعض الضحايا في قلعة شانج يين.. وذكر لي تجارب تشيب منها رؤوس الرضع ولكنه لم يستطع الاستمرار في هذا الإجرام فأطلق ساقه للريح وهرب وعاش معي هنا في إحدى غرف الطابق العلوي حتى يسترد صحته التي انهارت.

- وما الذي حدث به فيما بعد؟

- استيقظت على أصوات الجيران في الليل حيث التهمت النار جميع أركان البيت وقد بدأت من الطابق العلوي الذي يقيم فيه الشاب وعثرنا على جثته متفحمة بل كانت رمادا لا أكثر.

وضحك مستر انجاز وقال:

- أخشى أن تتصور أنني أسير أوهام وخزعبلات.

قال بوارو في هدوء: بل إنني أصدقك القول فأنا أعرف كل هذا.

قال أنجلز: وكيف عرفت ذلك عنه؟

وروى له بوارو قصة الرجل الذي مات في منزله وقال:

- لقد ذكر المسكين اسم شانج يين وحدثني عن عصابة اسمها «الأربعة الكبار» وقال أن شانج هو رقم (١) ورقم (٢) رجل أمريكي ورقم (٣) امرأة فرنسية ورقم (٤) لقبه «المدمر» وهو منفذ أحكام العصابة الإجرامية.

واستطرد بوارو يسأل:

- هل سمعت من قبل عن عصابة الأربعة الكبار؟

- نعم سمعت عنهم ولكن ليست لدي معلومات أن الأربعة الكبار على علاقة بشانج يين.

ونهض الرجل فجأة واستأذن منا دقائق عاد بعدها حاملا خطابا ألقى به أمامنا وهو يقول:

- لقد أرسل لي هذا الخطاب بحار كنت قد عاونته وساعدته وهذا البحار كان مفرطا في الشراب فتلمست له العذر على ما ورد في خطابه وأبيت أن أرد عليه.

وراح الرجل يقرأ لنا الخطاب بصوت مسموع وقد جاء فيه ما يلي:

«سيدي العزيز.. ربما أنت الآن لم تعد تتذكرني أما أنا فمن غير الممكن أن أنساك فقد ساعدتني وعاونتني معاونة لا تنسى أبداً.. فهل يروق لك الآن أن تساعدني؟.. إنني يا عزيزي في أشد الحاجة إلى المال لكي أغادر البلاد حيث إنني مختبئ هنا بعيدا عن العيون خوفا من مطاردتهم لي، وإذا ما حدث وأن عرفوا بأمري قتلوني وتخلصوا مني في

الحال.. إنني يا سيدي أقصد الأربعة الكبار وأنت كم تعلم فالمسألة أصبحت حياة أو موتاً.. مع العلم أن معي قدرا وفيرا من المال ولكنني أخشى الخروج إلى الطريق.. لذا أتوسل إليك أن تبعث لي بمائتي جنيه وسوف أردها إليك حال مغادرتي البلاد وإنني لأقسم على هذا أمام الله»

خادمك المخلص

«جوناثان هويلي»

وأردف أنجلز يقول: إن هذا الخطاب مرسل لي من كوخ جرانيت في هوباتون في دارتمور، وللأسف ظننت أنه عملية نصب للاستيلاء على المال، فإن كنت ترى أن هذا الخطاب سينفعك في مهمتك فخذه واحتفظ به.

وفي الحال تناول بوارو الخطاب ودسه في سترته قائلا:

- أشكرك، وأنا الآن سأذهب إلى هذا الرجل في مخبئه.

فعلق انجاز قائلا: هل يضايقك أن أرافقك إلى هناك؟

- بل تسرني مرافقتك لي يا سيدي.

وانطلقنا ولحقنا بالقطار وهبطنا منه في قرية هوباتون في تمام الساعة الثامنة وسألنا أحد الرجال المسنين عن كوخ جرانيت فقال:

- كوخ جرانيت؟! آه.. أنه هناك.. في نهاية هذا الشارع. إنه البيت الأزرق الملون.. هل تريدون مقابلة مفتش الشرطة؟

فسأله بوارو في صوت مرتفع:

- مفتش الشرطة؟ ماذا تعني؟

- ألم تسمعوا عن حادث اغتيال صاحب الكوخ، لقد عثروا عليه سابحا فوق بحيرة من الدماء.

صاح بوارو قائلا: أوه يا إلهي، أنني أرغب في رؤية المفتش فعلا.

بعد دقائق كنا جميعا في مكتب المفتش ميدوز الذي كان متحفظا في بداية اللقاء وحين كشف بوارو عن هويته وصداقته للمفتش جاب تخلى عن تحفظه وراح يروي لنا كل شيء وقال:

- نعم.. إنه للأسف حادث شنيع للغاية يا سيد بوارو.. لقد حضرت على عجل فور أن تلقيت إشارة بالحادث.. كان العجوز وهو في السبعين من العمر غارقا في دمائه إثر ضربة عنيفة على رأسه كما كان عنقه مجزوزاً من الأذن إلى الأذن وعلمت من وصيفته أن سيدها كان يملك مجموعة نادرة من التحف الأثرية تعرضت للسرقة قبل الحادث فأدركت على الفور أن الحادثة كانت نتيجة سرقة التحف النادرة.

وأردف المفتش ميدوز قائلا: اثنان فقط يتوليان رعاية شئون الرجل العجوز إنهما الطاهية بيتس أندروز وهي من أصل ريفي ثم روبرت جرانت الذي كان خارج المنزل لإحضار اللبن من المزرعة كعادته في مثل هذه الساعة من كل يوم.. وقد أخبرتني الطاهية أنها كانت تتسامر مع إحدى الجارات نحو عشرين دقيقة وفي أثناء ذلك وقعت

الجريمة.

واستطرد المفتش ميدوز قائلا: عاد روبرت من المزرعة ودخل من الباب الخلفي كما اعتاد يوميا ووضع اللبن في المطبخ ثم اتجه إلى فراشه ليدخن ويقرأ الصحف دون أن يعرف أي شيء عن الحادث وهذه هي معلوماته كما رواها لنا.. ثم جاءت بعده بيتسي التي أطلقت صرخة مدوية فور مشاهدتها للدماء.

وخلاصة هذا أن مجهولا تسلل إلى البيت أثناء خروج الخدم.. وذبح العجوز المسكين، ويبدو لي أن القاتل كان يتصف بجسارة رهيبة.. لأن الذي يتسلل في وضح النهار وبين بيوت عديدة هكذا وجيران كثيرين كما ترى فكيف يفعل كل هذا ويذبحه نهارا جهارا إلا إذا كان صاحب قلب لا يخاف. ثم ألا تلاحظ أن هناك أمرا غريبا وغير معقول في هذا الحادث يا سيد بوارو؟

فقال بوارو: إنني أتفهم ما تفكر فيه يا عزيزي المفتش.

فقال المفتش: هناك أمر يحيرني وهو موضوع التحف النادرة لماذا اقتحم القاتل بيت الرجل في وضح النهار وهو يعلم أن بمقدور الرجل أن يطلق صرخة مدوية ليهرع إليه جيرانه في الحال ودون تردد ثم إن موضوع التحف النادرة كيف أدرك أنها ذات قيمة في أول زيارة قام بها لقتل العجوز.

قاطعه مستر انجاز قائلا: أظن أن القاتل باغته بضربة عنيفة في الرأس قبل أن يذبحه؟

- نعم هذا إما حدث ولكن كيف تسلل إلى البيت ثم يقتل الرجل ويغادر البيت دون أن يراه أحد؟ إنني أعتقد أن القاتل من داخل البيت لا من خارجه

وسكت المفتش ميدوز لحظة ثم قال:

إنني تابعت أثر الأقدام عقب الحادث وحين اقتفيت أثر حذاء بيتس انتهى بي إلى المطبخ، أما حذاء الخادم روبرت فقد أوصلني إلي غرفته وارتبت في الأمر فاقتحمت غرفته وإذا بي أكتشف أن التحف الصينية النادرة في غرفته وأن اسمه روبرت جرانت اسم مزيف أما الاسم الحقيقي إبراهام بيجز، وقد سبق أن حكم القضاء عليه بالسجن خمسة أعوام بتهمة السرقة والسطو فألقيت عليه القبض في الحال.

ونظر إلينا في زهو وانتصار وهو يقول:

- ما رأيكم أيها السادة الأعزاء؟

قال بوارو: إنها قضية واضحة وضوح الشمس فهذا الرجل الذي أمسكت به مجنون لأنه خلف وراءه أثراً لا يتركه لص مبتدئ، فكيف إذا كان كما تقول لص محترف.

قال المفتش: أغلب الظن أنه جاهل لا يعرف شيئا عن البصمات والأحذية.

قال بوارو: ها ها ها يبدو أنه أسير الروايات البوليسية الغامضة، والآن هل تتفضل بأن ترافقني إلى مسرح الحادث؟

وانطلقنا جميعا إلى مسرح الجريمة الذي قتل فيه

جوناثان هويلي وسألت بوارو هامسا:

- ما هو رأيك يا سيد بوارو؟

فأجابني بنفس الهمس: لقد قال هويلي في خطابه الذي بعث به إلى مستر أنجلز أن الأربعة الكبار يطاردونه بينما جميع القرائن تؤكد إدانة الخادم جرانت، فهل ارتكب جريمته طمعا في الاستيلاء على التحف النادرة أم أنه عميل تابع لعصابة الأربعة الكبار؟ إن هناك نقطة تضعف آراء المفتش ميدوز، وهي أنه مهما بلغ من قيمة التحف فإن ثمنها لا يمكن أن يدفع المرء على ارتكاب جريمة قتل، ثم إنه بمقدور جرانت أن يسرقها دون أن يقتله ويلوذ بالهرب فما حاجته إذن لذبحه من الأذن إلى الأذن إنني أرى يا صديقي أن الأربعة الكبار يقفون وراء الحادث وأن جرانت بريتا تورط في الحادث ببراعة ودهاء.

★ ★ ★

الفصل الرابع

حين بلغنا الكوخ طلبت الطاهية أن تتحدث مع المفتش ميدوز بمفردها وهمست في أذنه ببضع كلمات تحول إلينا على أثرها قائلا:

- أرجوكم يا سادة أن تشاهدوا البيت كما تشاؤون، وأرجو أن تلتمسوا لي العذر لبضع دقائق أتغيب فيها عنكم لأمر هام أما هذا فإنه حذاء جرانت أحضرته لكم لكي تفحصوه جيدا لمقارنته بأثار حذاء القاتل.

كانت غرفة الاستقبال مفروشة بمشمع ملوث بالدماء بينما كان بوارو ينظر باهتمام شديد إلى أرجائها وقد تابعته بشغف وكان مستر أنجلز يتحسس بعض التحف النادرة لكشف طلاسمها، وبعد أن انتهى بوارو من فحص الأرضية قال لي:

- مامن شك أن الجثة كانت هنا.. بقايا بركة الدماء.. من حولها يحدد موضع الجثة.. وهذه آثار حذاء من المطبخ وإليه فمامن شك أن القاتل سلك هذا الطريق أما الحذاء فهو مقاس (٩)، أرجوك ناولني حذاء جرانت يا هاستنجز

وأعطيته الحذاء وراح يطابقه على الآثار فتطابقا فقال في الحال:

- إن القاتل جاء من ناحية المطبخ وارتكب جريمته وعاد

إلى المطبخ وغاص في بركة الدماء ثم بعدها اتجه إلى غرفته.. ولكن لا.. إن عاد إلى مكان الجثة ثم ذهب إلى مخدعه.. فهل فعل ذلك من أجل سرقة التحف الصينية النادرة؟ أم أنه نسى شيئا يدل على هويته فعاد يسترده؟

فقلت: ربما يكون قد قتل الرجل في المرة الثانية التي عاد فيها إلى غرفة الاستقبال.

- كلا يا عزيزي.. ألم تفطن إلى أن أحد الآثار الملوثة بالدم والخارجة من الغرفة قد تلاشى من الأثر الآخر القادم من المطبخ مما يدل على أن الجريمة وقعت في المرة الأولى قبل أن يذهب إلى المطبخ، فلماذا عاد إلى الغرفة عقب ارتكاب الجريمة؟ ثم هل كانت التحف النادرة هي سبب ذلك؟ الحق أنني لا أعرف حتى الآن وغرق لحظات في خيالاته ثم قال في صوت هامس كمن يخاطب نفسه:

- للأسف إن كافة الأدلة تشير بقوة إلى الخادم جرانت على أنه القاتل، لكن هل من المعقول أن يترك كل هذه الأدلة التي تحاصره؟ إن آثار حذائه الملطخ بالدماء ظاهرة على الأرض من مكان الجثة وحتى باب غرفته، إن هذا غير منطقي ولا يقبله عقل وإلا كان جرانت كان من أغبى الأغبياء.. إنني أعتقد أنه ضحية مؤامرة شديدة الإتقان لكن أين أدلة ذلك أو أقصد أدلة براءته؟

وراح بوارو يفحص غرف المنزل ويفتح الدواليب ويفتش فيها وانتهى به المطاف إلى غرفة المعيشة.

وفجأة صاح في طرب فأسرعت إليه أطمئن فوجدته واقفا في منتصف غرفة المعيشة في زهو وانتصار وفي يده فخذ خروف ونظرت إليه متسائلا فقال:

- تعال يا صديقي هاستنجز.. تأمل بدقة هذا الفخذ

تأملته بدقة شديدة ولم الاحظ شيئا يدعو للابتهاج.

فصاح قائلا: أوه ألا تلاحظ هذا.. وهذا.. وهذا، أما هذا، وهذا وهذا فقد كانت حبيبات صغيرة من الثلج المتجمد عالقة بفخذ الخروف.

فقلت: إنه لحم مستورد من نيوزيلندا المشهورة بصناعتها ضحك بوارو ضحكة ساخرة وراح يتهكم من حديثي قائلا:

- أوه ما أروعك إنك عبقري شديد الذكاء. أجدر بك أن تنشر إعلانا في الصحف يقول إنك على استعداد لحل جميع المشكلات وفك الشفرات وكشف النقاب عن أي حادث غامض.. هأ هأ هأ هأ.

وقبل أن أعلن له معارضتي واحتجاجي على استخفافه وتهكمه مني ترامى إلى مسامعي صوت أقدام المفتش ميدوز في الردهة فأعاد بوارو فخذ الخروف إلى الإناء وغادرنا مخزن الطعام لمقابلة المفتش ميدوز وقال بوارو

للمفتش: لقد انتهيت من الفحص ويمكننا الرجوع لمركز الشرطة.

سأله المفتش: ألا تحب أن تذهب إلى المشرحة لفحص الجثة؟

- كلا.. شكراً.. لست في حاجة إلى ذلك.. ولكن أحب أن أقابل المتهم روبرت جرانت.

- لك ما تشاء وترغب.

- لكنني أود أن ألتقي به بمفردي.

وظهر التردد على وجه المفتش وراح بوارو يقول:

- بمقدوري أن أتصل بإدارة شرطة سكوتلانديارد وسوف يجيبون طلبي.

فقال المفتش: لقد سمعت عنك كثيراً يا مستر بوارو ولعلك تعرف أن مثل هذا اللقاء المنفرد مخالف للوائح والقوانين.

قال: أعرف هذا ولكن هذا اللقاء غاية في الخطورة.

قال المفتش: أية خطورة تلك التي تتحدث عنها يا مستر بوارو؟

قال بوارو: السبب أن جرانت برئ لا علاقة له بالحادث!!

نظر إليه المفتش ميدوز في دهشة واستغراب قائلا:

- ماذا تقول؟ جرانت ليس هو القاتل؟ إذن من القاتل؟ من هو أخبرني بربك يا مستر بوارو؟

أجابه بوارو في بطء قائلا:

- القاتل رجل في صدر الشباب جاء إلى منزل القتيل بعربة يجرها جواد ارتكب جريمته وانصرف يقود عربته وهذا الرجل كان عاري الرأس وثيابه ملطخة بالدماء.

اعترض المفتش قائلا: وأهل القرية؟ كيف عميت أبصارهم عنه وقد اقترف جريمته في وضح النهار؟

وابتسم بوارو لكلمات الرجل الممزوجة بالدهشة والعجب ثم استطرد المفتش ميدوز حديثه قائلاً: كيف يحدث هذا وهو كما تقول يمتطي عربة يجرها جواد ويجتاز بها طرقات القرية؟!

أجابه بوارو: بالطبع شاهده أهل القرية لكنهم لم ينتبهوا لها.

عادت الدهشة إلى وجه الرجل ثم قال في تردد:

- أهذا جائز؟! كيف شاهدوا العربة ولم ينتبهوا لها أهذا لغز يستعصي حله أم ماذا؟

- أمامنا وقت طويل لإماطة اللثام عن هذا اللغز الغامض.

وانتهت المناقشة بموافقة المفتش للقاء بوارو مع جرانت بعد أن تلقى إشارة من إدارة سكوتلانديارد بالموافقة.

★ ★ ★

والتقى بوارو على انفراد طبقا لرغبته مع جرانت وقد سأله مباشرة دون لف أو دوران:

قال: أصغ إلي يا جرانت، إنني واثق من براءتك.. لهذا أرجو منك أن تروي لي ما حدث بدقة.

تمتم جرانت واضطرب قائلا:

- أقسم لك أنني برئ.. أنا لم أقتله.. إن هناك شخصا مجهولاً دس التحف في حقيبتي دون أن أفطن لتلك المؤامرة.. صدقني إنها تهمة ملفقة.. ففي حين عودتي من الخارج اتجهت مباشرة إلى غرفتي ولم أعرف أن سيدي لقى حتفه إلا بعد أن صرخت بيتسي تستغيث وأقسم أنني برئ..

ونهض بوارو وقد تظاهر بعزمه على الانصراف قائلا:

- مادمت مصرا على خداعي فلا جدوى من لقائي بك.

فصاح جرانت في هلع: أقسم أنني..

فقاطعه بوارو وقال له في حزم:

- إنني أعرف أنك دخلت إلى قاعة الاستقبال.. كما أعلم أنك عرفت بمقتل سيدك قبل صرخة الخادمة.. وأنك كنت تتأهب للهرب قبل أن تكتشف بيتسي الجثة

ونظر الرجل إلى بوارو في ذهول وقال له بوارو:

- هيا تكلم.. اكشف عن الحقيقة وهذه هي فرصتك وإلا فقدت فرصة النجاة الوحيدة لك، تكلم وإلا ستذهب إلى غرفة الإعدام.

وخيم الصمت لحظات ثم صاح جرانت قائلا في حماس:

- سأتكلم.. سأروي لك الحقيقة دون أن أخفي عنك شيئا.. نعم.. عند عودتي من الخارج دخلت قاعة الاستقبال ورأيت الجثة.. كان ممددا على الأرض سابحا في بحيرة من الدماء.. فتملكني الفزع.. فقد كنت أعرف أنهم سيرجعون إلى صحيفة سوابقي وسيشرون ناحيتي بأصابع الاتهام، فقررت أن أهرب قبل أن يلقوا القبض علي وللأسف حدث ما توقعته وتنبأت به.

وسأله بوارو: وماذا عن التحف الصينية النادرة؟

تردد جرانت لحظات فقال بوارو:

- إنك سرقتها بدافع فطري كامن بداخلك.. إنك

سمعت من سيدك أنها تحف ثمينة ونادرة فقررت الاستيلاء عليها.. أليس كذلك؟ والآن دعني أسألك وأرجو أن تجيبني بأمانة.. بعد أن صعدت إلى مخدعك عدت مرة أخرى إلى قاعة الاستقبال وفي هذه المرة الثانية أخذت التحف أليس هذا صحيحا؟

- كلا يا سيدي.. لقد أخذت التحف في المرة الأولى عقب رؤيتي للجثة ولم أعد إلى قاعة الاستقبال مرة أخرى

سأله بوارو: متى أفرجوا عنك وخرجت من السجن؟

- منذ حوالي ستين يوما تقريبا.

- كيف حصلت على هذه الوظيفة؟

- عن طريق مندوب خاص من إحدى جمعيات رعاية المسجونين، فقد قابلني المندوب على باب السجن عقب خروجي مباشرة.

- هل كان قسا؟ أرجوك صفه لي بالضبط؟

- لم يكن قسا بالمعنى المعروف.. وإن بدا لي وكأنه كذلك .. كان يرتدي ملابس سوداء.. واسمه سوندرز ونصحني بالتوبة وعدم ممارسة الجريمة مرة أخرى وأخبرني أنه أوجد لي فرصة عمل وأرسلني في التو إلى مستر هويلي.

ونهض بوارو واقفا وهو يقول:

- أشكرك، هذا هو ما سعيت لمعرفته وتأكد أنني سأنقذك من حبل المشنقة.

واستدار بوارو وهو يقترب من الباب قائلا:

- هل أهداك سوندرز حذاء جديدا؟

وتجلت علامات الدهشة والاستغراب على وجه جرانت وقال:

- نعم.. لقد أعطاني حذاء بالفعل ولكن كيف عرفت؟

- إن عملي يكشف لي العديد من الأشياء الغامضة.

عقب هذه المناقشة ذهبنا إلى أحد المطاعم وقد تساءل أنجلز ونحن نلتهم الطعام بشراهة من أثر الجوع:

- هل توصلت إلى معلومات هامة يا مستر بوارو؟

أجاب بوارو: نعم.. إن القضية أصبحت واضحة وضوح شمس فالأربعة الكبار هم الذين قتلوا الرجل المسكين والمدمر رقم ٤ هو الذي قام باستقبال جرانت من السجن وسلمه وظيفته الجديدة وأعطاه حذاء جديداً ثم انتهز فرصة غياب الطاهية وجرانت وتسلل إلى المنزل، وكان يقود عربة خاصة بنقل اللحوم المجمدة وارتدى حذاء جرانت الأصلي وتسلل إلى البيت وارتكب جريمته في هدوء ثم انصرف في أمان.

- كيف استبدل الحذاء الأصلي يا سيد بوارو؟

- استبدله بعد أن تسلل إلى المطبخ وقتل هويلي وخطى في بركة الدماء حتى يترك وراءه أثرا لحذائه ثم رجع إلى المطبخ وخلع الحذاء ولبس حذاءه الأصلي ثم خرج وامتطى مركبته.

فقال أنجلز: كيف لم يشاهده أحد من أهل القرية ومركبته تخترق طرقات القرية في عز النهار؟

قال بوارو: هنا تظهر عبقرية رقم (٤) ودهاؤه فقد رآه

الناس جميعا ورغم هذا لم ينتبه له أحد.

- ماذا تقصد؟

- أقصد أنه جاء راكبا عربة الجزارة.

فهتفت أقول: جاء راكبا عربة الجزارة.

- هذا صحيح يا هاستنجز.. فخذ الخروف.. إن الناس شهدوا أنهم لم يروا أحداً يطرق باب الكوخ هذا الصباح.. إلا أنني عثرت في مخزن الأطعمة بالكوخ على فخذ خروف مجمد مازال الثلج عالقا بالفخذ، فإن هذا تأكيد على وصوله هذا الصباح قبيل ارتكاب الجريمة، إذن هنا شخص تسلل إلى الكوخ اليوم وهذا الشخص هو الجزار المزيف وقد حضر في عربة الجزارة وهذا أمر طبيعي ودخل يحمل فخذ الخروف كالمعتاد، ولذلك لم يلفت انتباه أحد، مما دعاهم للشهادة بأنهم لم يروا أي شخص غريب هذا الصباح يدق باب الكوخ، والواضح أن الجزار المزيف هو المدمر رقم (٤)

قلت بصوت مرتفع: الحق أن رقم ٤ داهية لا نظير له.

فعلق بوارو قائلا في أسى: لكنه لا يفوق عبقرية وذكاء هيركيول بوارو أليس كذلك؟

فقلت: حسنا يا صديقي إن هذا صحيح فعلا ولكنك مقبل على مباراة خاصة قادمة ستكون الغلبة فيها للأكثر دهاءً وعبقرية.

★★★

الفصل الخامس

نجح هيركيول بوارو في تبرئة ساحة جرانت أمام هيئة القضاء حيث أتى بالشهود الذين شاهدوا عربة الجزارة يوم الحادث، كما حصل على شهادة تفيد بعدم خروج عربة الجزارة من سلخانة اللحوم في هذا اليوم، مما يؤكد أنها عربة مزيفة وأن صاحبها يقف وراء الحادث دون أدنى شك.

وشهدت امرأة من القرية أنها رأت الجزار يغادر الكوخ في صباح يوم الحادث وراحت تصف ملامحه وقالت إنه كان يبدو كجزار حقيقي حيث إن الدماء تلطخت على ملابسه وهو متوسط الطول والعمر حليق الذقن.

وعند انصرافنا من قاعة المحكمة مال بوارو ناحيتي وقال:

- صدقتني يا هاستنجز أن رقم (٤) فنان شديد الدهاء وعبقري يجيد التنكر بذكاء، فها هو تارة يبدو طليق اللحية وتارة أخرى يبدو حليق الذقن، ولكن الأهم من كل هذا أنه يجيد صناعة الدور الذي يلعبه كممثل بارع.

قلت لبوارو: لكننا لم نشهد تقدما للأمام ولو خطوة واحدة.

- كيف تقول ذلك؟ إننا الآن نعرف كيف يلعب أدواره وما هي حيله وأساليبه، أما هو فلا يعرف شيئا عنا.

- أنني أرى يا عـزيزي بوارو أنك تخطط في الماء، لا

توجد لك خطة محددة واضحة تسير على هداها.

- أوه يا هاستنجز إنك هكذا دائما تتعجل الأمور ولا تتريث.

أثناء ذلك دق جرس الباب ودخل المفتش جاب بصحبة رجل قدمه لنا باسم الكابتن كينيت من المخابرات الأمريكية.

وبعد تناول العصير بدأ المفتش جاب حديثه قائلا:

- إن مستر بوارو مهموم هذه الأيام بشأن منظمة خطيرة تسمى نفسها «الأربعة الكبار» وقد سألني أن أزوده بأية معلومات تتعلق بها وحين زارني الكابتن كينيت رأيت من واجبي أن أحضره لتسمع منه بنفسك القصة التي سيدلي بها.

- لعلك قرأت في الصحف يا سيد بوارو عن حوادث الطوربيد والسفن الأمريكية التي ارتطمت بصخور إحدى الشواطئ الساحلية وقد تصورنا أن هذا يعود للمناخ وقوة الرياح، ومضت الأمور على ما يرام وإذا بالمباحث الفيدرالية تقتحم وكرا إجراميا عثرت فيه على مستندات خطيرة ذات أهمية قصوى وأجهزة متقدمة حديثة تشير إلى أنَّ حوادث الطوربيد والسفن الحربية كانت بفعل فاعل، وأشارت المستندات إلى وجود عصابة كبرى تعمل على دفع هذه السفن رغما عنها من خلال تلك الأجهزة الإشعاعية التي اخترعها عالم بريطاني.

وبدت الدهشة على ملامح بوارو الذي هتف قائلا:

- أكمل يا عزيزي، وماذا حدث بعد ذلك؟

- عرفنا أن العالم البريطاني هو مستر هاليداي وقررت المخابرات الأمريكية أن ألتقى به لأستفسر منه عما انتهت إليه أبحاثه الخطيرة.

- بماذا أخبرك هذا البريطاني؟

- للأسف لم ألتق به.

فقاطعه المفتش جاب قائلا: إن العالم البريطاني اختفى كما لو أن الأرض قد انشقت وبلعته.

- ومتى اختفى؟

- منذ شهرين أبلغتنا زوجته بحقيقة اختفائه.

تساءل بوارو: ولكن كيف اختفى؟

قال جاب: إنه ذهب إلى باريس بحجة مواصلة أبحاثه العلمية إلا أن زوجته أخبرتنا أنه ترك البيت بعد مشاجرة عنيفة معها ولكن على أية حال لم نعثر على أثر له حتى الآن.

- وماذا تعرف يا بوارو عن حكاية الأربعة الكبار؟

أجابه بوارو: إنها منظمة دولية يقودها رجل صيني يعرف بالرقم (١) وأما رقم (٢) فهو أمريكي شديد الثراء ورقم (٣) امرأة فرنسية الجنسية أما رقم (٤) فهو إنجليزي يسمى «المدمر».

قال رجل المخابرات: رقم (٣) امرأة فرنسية والعالم البريطاني هرب إلى باريس، ألا يدعو هذا للتأمل، ولكن ألا تعرف اسم هذه السيدة؟

- كلا كلا .. ما أعرفه أنها فرنسية فقط.

وقال ضابط المخابرات الأمريكي: ولكن ما هي أغراض هذه المنظمة وما هدفها من إغراق القطع البحرية الأمريكية أهم عملاء للألمان؟

- كلا .. إنهم يعملون لحساب أنفسهم للسيطرة على العالم.

ولاحظ بوارو أن الرجل الأمريكي يكاد ينفجر ضحكا مما يرويه مما دفعه للقول:

- لا تسخر مما أقول يا كابتن إنهم يتمتعون بقوة رهيبة وها هم أغرقوا سفنكم فلا تتهاون في الأمر مهما حدث.

ونهض جاب عازما على الانصراف فطلب منه بوارو أن يزوده بخطاب تزكية لمقابلة مسز هاليداي زوجة العالم البريطاني فقد قرر مقابلتها.

وهكذا ذهبنا إليها في اليوم التالي فاستقبلتنا بحفاوة كبيرة وشرح لها بوارو الغرض من زيارتنا لها فقالت:

- إنني سعيدة لوجودك هنا يا مستر بوارو، فقد سمعت الكثير عن انتصاراتك وأمجادك وللأسف فإن شرطة لندن وباريس تشيران إلى خلاف حدث بيني وبين زوجي اختفى على أثره وأنك ستعرف الحقيقة لأنك بوارو.

شعر بوارو بالزهو والفخر من كلمات الإطراء التي ألقتها السيدة على مسامعه فراح يقول لها في ثقة واعتزاز:

- هلا أخبرتني بكل الظروف التي حدثت قبيل اختفائه المفاجئ.

أجابت المرأة قائلة: في يوم ٢٠ يوليه سافر زوجي إلى باريس للقاء بعض العلماء للتباحث في أمور علمية، ومن بين هؤلاء العلماء السيدة الشهيرة مدام أوليفيه وهي من أعظم الكيماويين في العالم، وشهرتها تكاد تفوق شهرة مدام كوري وهي حاصلة على أرفع وسام فرنسي، والمهم وصل زوجي إلى باريس في نفس المساء ونزل في جناح داخل فندق كاستليون وفي الصباح ذهب إلى زيارة البروفسيور بورجونو فقد كان على موعد معه، ثم وعده أن يعود إلى زيارته في اليوم التالي لمشاهدة بعض التجارب التي يجريها البروفسيور في معمله.

واستطردت مسز هالياداي تقول:

- بعد ذلك تناول وجبة غدائه في مطعم كافيه رويال ثم اتجه إلى زيارة مدام أوليفيه في منزلها بباريس وغادرها في الساعة السادسة وتناول عشاءه في مطعم لم تتوصل إليه الشرطة، ثم عاد إلى الفندق في الساعة الحادية عشرة مساء وقد قصد غرفته مباشرة بعد أن صافح رجال مكتب الاستعلامات، وفي صباح اليوم التالي غادر الفندق ومنذ هذه اللحظة لم يسمع أحد عنه خبراً.

وسألها بوارو: ومتى غادر زوجك الفندق في الصباح يا سيدتي؟

- لا أعرف يا سيدي.. إن أحدا لم يشاهده عند خروجه والغريب أنه لم يطلب الفطور مما يؤكد أنه خرج في ساعة مبكرة.

- أو ربما خرج عقب عودته من الليلة السابقة.

- لا أظن فقد كان مخدعه في حالة فوضى مما يدل على أنه نام في سريره، ولو أنه خرج ليلا لكان قد لفت انتباه الحارس الليلي.

- إذن نفهم من ذلك يا سيدتي أنه خرج في ساعة مبكرة، ولكن ماذا بشأن حقائبه؟

- أثبتت التحقيقات أنه أخذ معه حقيبة صغيرة.

فكر بوارو طويلا ثم قال:

- أنا لا أوافق البوليس على ما ذكره أن زوجك هجر بيته فأنا واثق أن شيئا ما حدث أجبره على تغيير نشاطه وبرنامجه.

ثم راح يسألها: هل أخبرك البوليس أنه تسلم خطابات من استعلامات الفندق أم لا؟

- نعم تسلم خطاباً واحداً بعثت أنا به إليه يوم سفره.

بعد لحظات الصمت قال بوارو:

- أوه إن مفتاح هذا اللغز يوجد في باريس ولابد من الذهاب إليها

ونهض بوارو واتجه ناحية الباب واستدار على عقبيه قائلا:

- على فكرة.. هل تحدث زوجك معك عن «الأربعة الكبار»؟

فكرت السيدة طويلا ثم قالت في هدوء:

- كلا.. لم يحدث أن ذكر أمامي مثل هذه الكلمات.

- أشكرك يا سيدتي وسوف أصل إلى الحقيقة.

- وأنا على يقين يا بوارو من أنك ستنجح في مهمتك.

★★★

الفصل السادس

وذهبنا إلى باريس بعد لقاء بوارو مع زوجة العالم هاليداي، ثم عدنا إلى لندن وسرعان مارجعنا إلى باريس مرة أخرى في رحلات مكوكية حتى أن بوارو صاح في غضب قائلا:

- اللعنة على الأربعة الكبار لقد أرهقوني مثل كلاب الصيد التي تبحث عن أداة جريمة في الأحراش وبين الأشجار دون جدوى.

سألت بوارو: هل تعتقد أن العالم هاليداي رهينة في أيدي الأربعة الكبار؟

فأجاب: نعم بكل تأكيد.

وذهبنا إلى البروفيسور يورجوني وكان حديثه يخلو من معلومات مفيدة لمهمتنا.. وذهبنا إلى مدام أوليفيه العالمة الفرنسية الشهيرة ولا أحسبني أذيع سرا إذا قلت أنني شعرت بالرهبة وأنا أصعد درجات سلم بيتها في باسي.. ونحن في طريقنا إلى هذه السيدة الشهيرة ذائعة الصيت كان بوارو قد حدد معها موعدا مسبقا، ورغم هذا كانت مقابلتها جافة وباردة واستهلت اللقاء بقولها:

- لا أعتقد أنني سأنفعك بأية معلومات فقد أبلغت الشرطة بكل ما أعرفه من معلومات.

- ولكنني لا ألقي عليك أسئلة مثل رجال الشرطة يا سيدتي إنما أرجو أن تذكري لي ما حدث بينك وبين مستر هاليداي.. فيم كان حديثكما؟

نظرت إليه في استغراب وقالت:

- أوه إننا تحدثنا فقط عن أبحاثه وأبحاثي لا أكثر من ذلك.

- هل أشار حديثه معك عن الأشعة المغناطيسية التي ابتكرها؟

- بالطبع فقد كانت محور حديثنا معه.

- هل أقنعك بصحة نظريته أم أنها نظرية خيالية؟

- البعض ذكر أنها خيالات أما أنا فلدي قناعة بصحتها.

- هل تعتقدين أن نظرياته ذات طابع عملي أم أنها مجرد نظريات؟

- لاشك أنها تحمل الصفة المعملية، فأبحاثي أيضا تسير في نفس الاتجاه وإن كانت الأهداف مختلفة تماما.. لقد أجريت العديد من التجارب على أشعة «جاما» المنبثقة من الراديوم حرف «س» واستنجت إلى أن لها قوة مغناطيسية هائلة.. ولكنني مازلت في مرحلة لا أستطيع فيها عرض نتائجها على العالم، ولهذا فقد كنت على اهتمام شديد بنظريات مستر هاليداي.

وفجأة سألها بوارو سؤالا أثار دهشتي

قال: وأين دار الحديث بينكما؟ أهنا في هذه القاعة؟

- كلا كلا.. يا سيدي بل هناك في المعمل.

- هل يروق لك أن أذهب لمشاهدته؟

- بكل سرور.

ومضت بنا السيدة إلى معملها الخاص وكان به باحثان

من مساعديها قدمتهما لنا في طرب.. الأولى مادموازيل كلود إحدى المساعدات ومسيو هنري صديق قديم.

وراح بوارو كعادته يتفحص المعمل بدقة شديدة ويتأمل أبوابه في أي اتجاه تؤدي ثم التفت يسألها:

- أكنتما بمفردكما يا سيدتي عند لقائك به هنا؟

أجابت: نعم أما مساعداي فقد كانا في الغرفة الملحقة بالمعمل.

- هل تظنين أن حديثكما قد ترامى إلى مسامع المساعدين أو غيرهما؟

فكرت مدام أوليفيه ثم قالت:

- هذا مستحيل.. إن الأبواب كلها كانت مغلقة.

- سؤال أخير يا سيدتي: هل أخبرك مستر هاليداي كيف سيقضي أمسيته؟

- كلا.. للأسف لم يشر إلى مثل هذا إطلاقا.

وشكرها بوارو وانصرف وظلت هي تتابع أبحاثها وبينما كنا نجتاز بهو البيت الخارجي دخلت سيدة ترتدي ملابس سوداء وأسرعت تصعد الدرج إلى الطابق العلوي وهي تشيح بوجهها كأنما لا تريد أن تكشف ملامحها.

وتريث بوارو في الحديقة وتحول ناحيتي قائلا:

- أوه إنه أمر عجيب حقا!!

قلت: ماذا تقصد يا بوارو؟

- امرأة تدخل البيت وترى رجلين خارجين فتدير رأسها بعيدا عنهما، مع أن المفروض أن تتطلع إلينا في فضول

بدلا من أن تتجنبي النظر إلينا أليس كذلك؟

وفجأة صاح بوارو: يا إلهي.. ما هذا؟!

وجذبني بيده بعيدا في اللحظة المناسبة.

اقصد في اللحظة التي تهاوت فيها شجرة ضخمة فسقطت في نفس الموضع الذي كنا نقف فيه.. فلو أن بوارو قد أبطأ في تصرفه لقضت علينا في الحال صاح بوارو وقد بدا وجهه شاحبا:

- لو أنني مت يا هاستنجز لحدثت كارثة هائلة تهدد هذا العالم هأ.. هأ.. هأ.. هأ.

فقلت في ضيق: ولكن رجلاً مثلي تافه إذا مات فلا ضرر من موته.

فقال في غرور وثقة:

- إن هيركيول بوارو عبقري فذ لا مثيل له في أرجاء المعمورة.

سألته: والآن ماذا سنفعل؟

أجاب: علينا أن نفكر ونتأمل فالأمر جد خطير.

ثم أردف: ترى هل جاء مستر هاليداي حقا إلى باريس؟ صحيح أنه التقى مع البروفيسير يورجونو ومدام أوليفيه إذن فقد زار باريس فعلا.

ومضى يقول: إن هاليداي شوهد آخر مرة في الحادية عشرة مساء الجمعة فهل كان هو هاليداي حقا؟

قلت معترضا: لا تنس أن الحارس الليلي اكد أنه شاهده.

أجاب: لا تنس أنت أيضا أن رقم ٤ يجيد التنكر فلماذا لا ينتحل شخصية العالم هاليداي؟

- ماذا تقصد يا بوارو؟

- أقصد أن هاليداي لم يرجع إلى الفندق إطلاقا في تلك الليلة، لقد وقع في أيدي أعدائه!

وأردف بوارو: والآن هل كان هاليداي هو الذي قابل مدام أوليفيه؟ إنها حقيقة لا تعرفه شخصيا ولكن أي نصاب مزيف لا يمكن أن يخدعها وإلا سيجد نفسه عاجزا عن مواصلة حديثه معها حول النظريات العلمية الذي دار بينهما وهنا يمكنني أن أقول أن هاليداي قابل مدام أوليفيه وتناقشا معا ثم انصرف - فما الذي حدث بعد هذا؟

وفجأة شد بوارو على ذراعي وجذبني في اتجاه الفيللا قائلا:

- إنني أستطيع أن أتخيل ما حدث.. خرج هاليداي من الفيللا.. وما إن خطا في الحديقة بضع خطوات حتى لحقت به سيدة ترتدي ملابس سوداء وقالت له إن مدام أوليفيه تطلب عودته إليها مرة أخرى.. فاستدار راجعا معها ولكن هذه السيدة التي ترتدي ملابس سوداء كانت عازمة على خطفه بأوامر الأربعة الكبار بدلا من عودته إلى مدام أوليفيه ولكن إلى أين تذهب به؟ إن حديقة البيت تقع في اليمين وحديقة الفيللا المجاورة تقع في اليسار فتمضي به المرأة إلى ممر يؤدي به إلى الحديقة المجاورة بحجة أنه طريق قصير، وهنا يجب أن تذكر يا صديقي أن الشجرة

التي كادت أن تقع فوقنا سقطت من الحديقة المجاورة لبيت مدام أوليفيه وهو ما يعزز قولنا أن الأمر بات في حوزة الأربعة الكبار، وفي هذه الحديقة كان ينتظر هاليداي كمين أعده الأربعة الكبار واختطفوه، ولعله مازال حتى الساعة رهين الحبس الإجباري في الفيللا المجاورة

هتفت قائلا: أوه أتعتقد يا بوارو أن هذا هو ما حدث فعلا؟

أجاب: نعم بكل تأكيد وهيا معي نعُد إلى فيللا مدام أوليفيه.

قلت: هل ترغب في مقابلتها مرة أخرى؟

أجاب: بل أرغب في رؤية المرأة التي ترتدي ملابس سوداء فربما اكتشفنا أنها سكرتيرة العالمة الفرنسية.

وضغط بوارو على جرس الباب وفتحت لنا الخادمة التي استقبلتنا في المرة الأولى.

وقال لها بوارو: ما اسم السيدة التي ترتدي ملابس سوداء، ودخلت عندكم عقب خروجنا؟

- تقصد مدام فيرونر؟ إنها سكرتيرة مدام أوليفيه.

- هل لك أن تبلغيها رغبتي في التحدث إليها؟

عادت الخادمة بعد قليل قائلة:

- عفوا يا سيدي.. يبدو أنها خرجت منذ لحظات.

- إنني أعرف أنها داخل البيت أرجوك أبلغيها وإلا أخبرت الشرطة.

بعد لحظات عادت الخادمة واصطحبتنا إلى قاعة

الاستقبال ودخلت علينا السيدة الغامضة التي ترتدي ملابس سوداء فبادرها بوارو قائلا: أوه كما كنت أتوقع بالضبط.. أهلا بك يا عزيزتي الكونتس روسا كوف.

فقالت: اسمي الآن هو اينتز فيرونو متزوجة من رجل فرنسي وإن كانت جنسيتي الأصلية إسبانية.

ثم قالت وهي تضغط على حروف كلماتها بعصبية:

- والآن ما الذي تريده بالضبط مني يا سيد بوارو؟ ألا تعرف أنك رجل لا يطاق.. أما كفاك أنك جعلتني بأسلوبك السخيف أن أهرب إلى باريس تاركة لندن ورائي فهل تود الآن أن تكشف عن شخصيتي لمدام أوليفيه حتى تطردني وأعود أدراجي إلى لندن؟ إذا كان هذا هو هدفك فمن أين لي أن أعيش وأسعى على رزقي؟

- ليس هذا هو هدفي وأنت تعرفين ذلك فلا داعي للمناورات والتعامي عن الحقيقة.. إنني هنا من أجل أن تساعديني على التسلل إلى الفيللا المجاورة لإنقاذ مستر هاليداي إذا كان لايزال حيا، وهكذا أنت تلاحظين أنني أعرف كل شيء فلا داعي إذن للإنكار.

لاحظت بدوري اصفرار وجهها وأخيرا قالت:

- إنه لايزال حيا ولكنه لا يوجد في الفيلا المجاورة

ثم أردفت تقول: اسمعني جيدا يا مستر بوارو إنني أود إبرام صفقة معك، حريتي تتعلق بمصير هاليداي وسوف تتسلمه سليما معافى، ما هو قولك؟

فأجابها: اتفقنا ولكني أريد أن أعرف هل أنت ضمن

عصابة الأربعة الكبار، أقصد عميلة تعمل لحسابهم الخاص؟

وللمرة الثانية تلون وجهها مرة أخرى واصفرت وجنتاها والتزمت الصمت لا تبتغي الرد على السؤال لكنها قالت:

- هل تسمح لي بإجراء اتصال هاتفي؟

واتجهت ناحية الهاتف وطلبت رقما ثم راحت تقول:

- أرجوك يا هنري؟ إن بوارو هنا ويعرف كل شيء وهو يطلب إطلاق سراح مستر هاليداي وأنا أطالبك بسرعة الإفراج عنه وإعادته سالما إلى الفندق ثم عليك أن تلوذ بالفرار وأنهت المكالمة وهي تنظر إلى بوارو الذي قال لها:

- إنك سترافقيني إلى الفندق يا عزيزتي.

- كنت أتوقع أنك ستطلب مني ذلك.

وذهبنا إلى الفندق وقابلنا موظف الاستعلامات قائلا:

- إن شخصا مريضا حضر إلى الفندق ساعده للصعود إلى غرفته.

فقال بوارو: لا بأس فإنه أحد أصدقائي.

واتجهنا على الفور إلى جناحنا الخاص فوجدنا الرجل شاحب الوجه يكاد يكون مغشيا عليه وسأله بوارو هل أنت مستر هاليداي؟ فأجاب الرجل بنعم فطلب منه بوارو أن يبسط ذراعه لمشاهدة شامة سوداء مرسومة عليه وبسط الرجل ذراعه فاطمئن بوارو وتأكد أنه هو بالفعل مستر هاليداي فالتفت إلى المرأة قائلا:

- بمقدورك الآن أن تتصرفي يا عزيزتي الكونتس.

وناولت هاليداي مشروبا من العصير دب فيه النشاط.

وراح يقول هامسا: يا إلهي.. لقد ذقت المرار. إنهم مردة وشياطين لا قلب لهم ولا رحمة فيهم، ولكن.. أين .. أين زوجتي؟

- إنها في لندن تتطلع في لهفة وشوق حار إلى عودتك والآن هل ترغب يا مستر هاليداي أن تروي لي تفاصيل ما حدث معك

وتتطلع العالم هاليداي ناحية بوارو في ضيق وقال:

- أنا لا أستطيع أن أتذكر شيئا.

- ولكن أتعرف شيئا عن الأربعة الكبار؟

فقال: إنك لم تعاني ماعانيت منه، ثم إنني لو نطقت بحرف واحد لفقدت زوجتي وربما حياتي، أرجوك يا سيدي دعني وشأني أنهم سينتقمون إذا أنا تكلمت.

ثم نهض قائلا: إنني أود أن انصرف فاتركوني لحال سبيلي

وغادر الجناح دون أن يلتفت حتى لمصافحتنا أو توجيه الشكر لبوارو الذي أنقذه من الجحيم المستعر الذي عاش أسيرا له.

وصاح بوارو قائلا: أوه.. لقد انتصر الأربعة الكبار في هذه الجولة أيضا.

★★★

الفصل السابع

في مساء هذا اليوم عاد مستر هالياداي إلى لندن للاطمئنان على زوجته العزيزة التي رفض أن يتكلم خوفا على حياتها من الأربعة الكبار، أما أنا وبوارو فقد تخلفنا فظللت في باريس.

وقلت لبوارو وفي لهجتي نبرة عتاب:

- لماذا لا تتحرك؟ لماذا أنت قابع مكانك لا تبرحه؟ لماذا لا تبادر بالهجوم عليهم؟

- أتحرك نحو من؟ وأهاجم من؟

- الأربعة الكبار طبعا.

- لماذا لا تضع أنت الخطة؟ ما الذي تريد أن أفعله بالضبط؟

- أقل ما يجب أن تفعله هو إبلاغ الشرطة.

وماذا لو أبلغت الشرطة فماذا سأقول لهم؟ أقول أن هناك عصابة دولية تسمى الأربعة الكبار؟ ما هي الشواهد والأدلة ما القرائن والبراهين؟ إن الشرطة سترتاب في سلامة قواي العقلية ولن يروق لها حديثي.. إنني أنتظر أن يتحرك الأربعة أولا ثم أبدأ في التحرك ضدهم، ففي البحث الجنائي أشبه بمباراة الملاكمة يجب أن تنتظر الحركة الأولى من خصمك حتى تعرف كيف يلعب وما هي طريقة أسلوبه في اللعب ثم تبدأ في الرد عليه بأسلوبك أنت بعد أن تكون عرفت كيف يلعب، وهكذا أنا هنا يا هاستنجز سأنتظر وسأصبر حتى يتحركوا ثم أهاجمهم.

- وهل تتوقع منهم أن يتحركوا؟

- هذا مؤكد.. فقد تدخلنا في حادث اغتيال جوناثان هويلي وانقذنا الخادم من حبل المشنقة، وبالأمس أنقذنا العالم هالياداي من بين أيديهم وأفسدنا عليهم ما يخططون له، لهذا أنا واثق أنهم لن يصبروا وبالتالي لن يسكتوا.

وأثناء حديث بوارو معي اقتحم غرفتنا شاب طويل القامة نحيف الجسد له أنف معقوف ووجه أصفر يرتدي معطفا ذا ياقة طويلة مقفولة بالأزرار تحت عنقه، وفوق رأسه قبعة بسيطة تتدلى على عينيه.

وفي صوت هادئ قال لنا:

- عفوا أيها السيدان.. إن أنا اقتحمت غرفتكما بهذا الأسلوب السخيف، ولكنني في مهمة غير مشروعة ومحفوفة بالمكاره والمتاعب

وفي وقاحة وبجاحة جذب مقعدا وجلس عليه أمامنا وهو ينظر إلينا مبتسما وكدت أن أشبعه ضربا باللكمات إلا أن بوارو طلب مني أن ألزم مقعدي في هدوء غريب سأله بوارو:

- ماذا تبغي أيها الولد من هذه الزيارة الطفيلية؟

- الأمر غاية في البساطة يا عزيزي بوارو.. إنك ضايقت أصدقائي كثيرا.

- ومن هم أصدقاؤك أيها الولد؟

وأخرج الشاب علبة سجائره وتناول منها أربع سجائر ألقى بها على المائدة ثم عاد فتناولها وردها إلى علبته.

فقال بوارو: فهمت وماذا يطلبون مني الآن؟

أجاب: فقط يطلبون أن تعود إلى لندن وتكتفي بمطاردة لصوصها.

- وإذا أنا رفضت الانصياع لتلك النصيحة؟

- في هذه الحالة سيحزن ألوف المعجبين على موت هيركيول بوارو، وأنت تعرف أن الجميع في لندن يصلون من أجل أن تعيش.

فسأله بوارو: وإذا وافقت على مطالبكم.

قال الشاب: في هذه الحالة سأتفاوض معك لمكافأتك.

ثم أخرج الشاب محفظته وأخرج منها عشر ورقات من العملات النقدية فئةالعشرة آلاف فرنك، ألقى بها على المائدة وهو يقول:

- هذه المائة ألف عربون ولك بعدها مليون من الفرنكات

وهتفت وأنا أهب واقفنا في انفعال:

- أيها الوغد.. كيف تجسر على أن..

وما إن فعلت ذلك حتى جذبني بوارو من يدي وأجلسني على مقعدي، وقال: هدئ من روعك يا هاستنجز وتحلّ بالهدوء

ثم التفت إلى الرجل قائلا: ألم يخطر ببالك أن أقوم بإبلاغ الشرطة عنك وأن صديقي هاستنجز سيمنع هروبك وفرارك من هنا؟

فقال الرجل: إذا أردت أن تفعل ذلك فما المانع؟

واتجهت إلى باب الغرفة أقف أمامه كحائط صد وأنا

أصيح: هيا يا بوارو اتصل بالشرطة.

قال بوارو: اهدأ يا عزيزي هاستنجز ولا داعي للتهور.

قلت: أرجوك اتصل بالشرطة.

فقال: إذن أنا مضطر لتنفيذ رغبتك يا هاستنجز وإن كنت لا أشاطرك الرأي فيها.

واتجه بوارو إلى سماعة التليفون وسرعان ما هب الرجل واقفا وقفز ناحيتي كقط مصعور واشتبكت معه وأخذنا ندور في أرجاء الغرفة كمتصارعين، وفجأة رأيت الرجل يترنح ويهوي إلى الأرض ولكن في هذه اللحظة الخطيرة الحاسمة حدث مالم أتوقعه.. رأيتني أطير في الهواء كبهلوان السيرك ثم سقطت على الأرض واصطدمت رأسي بالجدار وقبل أن انهض كان قد فتح باب الغرفة وجريت إلى الباب الذي أغلقه بالمفتاح من الخارج.

وأسرعت إلى التليفون وانتزعت السماعة من يد بوارو وأنا أصرخ: أهذا هو المكتب اقبضوا على الرجل الذي نزل الآن.. إنه مجرم خطير.. إنه طويل القامة يرتدي معطفا مزررا حول عنقه وفوق رأسه قبعة رخوة.. أسرعوا.

بعد لحظات ترامت إلى مسامعنا خطوات في الردهة ودار المفتاح في القفل وفتح باب الغرفة وكان مدير الفندق هو الذي حضر إلينا بنفسه وصرخت قائلا:

- هل قبضتم على الرجل؟

- كلا يا سيدي لم نشاهد أحد يهبط على السلم.

- كيف هذا؟ لابد أنكم التقيتم به.

وقالوا بوارو: هل التقيتم بأحد وأنتم في الطريق إلينا؟

- نعم يا سيدي.. لقد مر بنا أحد الجرسونات نازلا درج السلم.

- إذن هذا هو التفسير المنطقي الوحيد.

لقد تعمد أن يرتدي معطفا طويلا مزررا حتى عنقه ليخفي تحته بزة الجرسونات، ولو أنكم فتشتم الممر لعثرتم على المعطف

وفعلا كان المعطف ملقى في أحد الأركان.

وقلت لبوارو: أنني آسف.. آسف جدا..

لقد تصورت أنني انتصرت عليه وطرحته أرضا ثم رأيتني فجأة أتشقلب في الهواء.

فضحك بوارو قائلا: أنها إحدى حركات الجودو يا عزيزي.

خدعة من الخدع اليابانية المعروفة فلا تتضايق ولا تحزن

ولمحت حافظة ملقاة على الأرض في ركن الغرفة فتناولتها لأفحصها وأنا أقول: لابد أنها سقطت من جيب خصمي أثناء العراك الذي نشب بيننا.

كانت في الحافظة عدة فواتير محررة باسم مستر «فيلكس لون» ورقة مطوية ما كدت أبسطها وأقرأ ما فيها حتى أسرع قلبي يدق بعنف في هلع وكان نص الورقة يقول:

«الاجتماع القادم للمجلس يوم الجمعة الساعة الحادية

عشرة بالمنزل رقم ٣٢ بشارع ايشبيل» وكان التوقيع هو رقم ٤، ناولت الورقة لبوارو وأنا أقول في اضطراب:

- اليوم هو الجمعة، والساعة الآن العاشرة والنصف.. إذن فلم يبق على موعد الاجتماع إلا نصف ساعة.. إن الحظ حليفنا..!

وغمغم بوارو: إذن فمن أجل هذا جاء لزيارتنا.

قلت: ماذا تقصد يا بوارو؟

أجاب: إن المسألة واضحة.. هذه دعوة صريحة موجهة إلينا لكي نحضر الاجتماع.. إن العنكبوت يدعو الذبابة إلى الدخول في المصيدة.. إنهم أذكياء ولكن ليسوا أكثر ذكاء من هيركيول بوارو

ويبدو أنني لم أفهم ماذا يقول، فأردف بوارو قائلا:

- ألم تفهم حتى الآن؟ لقد كنت أسأل نفسي عن السر وراء هذه الزيارة إنهم يعلمون طبعا أنه من المستحيل أن أقبل الرشوة فلماذا بعثوا بهذا الوغد الحقير؟ إنه افتعل معنا مشاجرة لكي يلقي بالحافظة على الأرض لنقرأ ما جاء في الورقة حول هذا الاجتماع، لنذهب إليه في الموعد المحدد ونقع في الفخ المنصوب.

قلت: وماذا سنفعل؟

أجاب: الذبابة لا تلقى بنفسها في نسيج العنكبوت إلا إذا كانت غبية، إنني سألزم فندقي لا أبرحه.. فإنهم يريدون اقتناصي حتى يخلو لهم الجو.. إنني أعتقد أنهم ينوون ارتكاب «عملية كبرى» فاستقر رأيهم على التخلص

مني حتى لا أقف حجرة عثرة في طريقهم.

ودقت الساعة الحادية عشرة - موعد الاجتماع - وفي الحادية عشرة والنصف جاءتنا رسالة من مدام أوليفيه تدعو بوارو إلى مقابلتها في الحال لأمر عاجل.

وذهبنا إلى مدام أوليفيه قابلتنا تقول: إنك تحدثت معي يا مستر بوارو عن اختفاء مستر هالياداي وقد عرفت أنك رجعت إلى بيتي عقب مغادرتك وطلبت مقابلة سكرتيرتي انيز فيرونو وقد غادرت البيت في رفقتك ولكنها لم تعد حتى الآن.

فسألها بوارو: وهل هناك شيء آخر يا سيدتي؟

أجابت: كلا يا مستر بوارو.. ففي الليلة الماضية سطا اللصوص وسرقوا مجموعة من الأوراق والمذكرات وحاولوا سرقة خزانتي الكبيرة ولكنهم لم ينجحوا في مهمتهم لحسن حظي وإلا لتمكنوا على شيء لا يقدر بثمن.

فقال بوارو: الواقع يا سيدتي أن سكرتيرتك مدام فيرونو هي الكونتس روساكوف أشهر لصة على مستوى أوربا كما أنها المسئولة عن اختفاء مستر هالياداي.

- ما هذا؟ إنه مستحيل أنا في ذهول مما أسمع.
- متى عملت في مكتبك؟
- أظن منذ خمسة أشهر.
- وماذا عن الأوراق المسروقة؟ هل عثروا عليها بسهولة؟
- الغريب أنهم توصلوا لها بسهولة.
- لأنها أمدتهم بالمعلومات.

ثم أردف متسائلا: ولكن عن أي شيء هام كانوا يبحثون؟ مجوهرات مثلا؟

- كلا كلا.. إن لدي كمية قليلة من الراديوم أمدتني به الدولة لإجراء أبحاثي عليها وهذه الكمية تقدر بنحو سبعة ملايين من الفرنكات.

- ومتى ستسترد الدولة كمية الراديوم؟

- المفروض بعد ٤٨ ساعة.

- إذن سيحاولون الكرة مرة أخرى، لهذا أنا أطلب منك مفتاح المعمل لحراسة الراديوم ولكن أرجو أن تكتمي أمري حتى إذا تسللوا وجدوني أمامهم.

وعدنا في طريقنا للفندق وسألت بوارو:

- ما هي خطتك؟

- سنعاود إلى الفندق لحزم أمتعتنا لنعود إلى لندن.

قلت في دهشة: وحراسة الراديوم؟

أجاب: سنتظاهر بالعودة إلى لندن ونستقل القطار إلى الميناء ثم نعود خلسة دون أن يرانا أحد لنستقر في الفيلا.

- ألا تخشى أن يرانا أحد؟

- بل سنغادر القطار أثناء الطريق.

- ولكن القطار لا يتوقف يا بوارو إلا في كاليه فهل ترغب في أن نقفز وهو يسير على أقصى السرعة حتى تتهشم عظامنا وتتكسر أعناقنا؟

- بل سنوقفه حين نشاء، فلسوف أطلب من أحد أعواني بجذب فرملة الخطر ليتوقف القطار ويدفع الغرامة المقررة

وفي أثناء حالة الفوضى والجلبة التي سيثيرها صاحبنا نتسلل إلى باريس دون أن يفطن إلى أمرنا أي إنسان.

ونجحت الخطة وقمنا بالهبوط من القطار واستبدلنا ملابسنا وصرنا نمشي في الطرقات كالصعاليك ثم عدنا إلى باريس كانت الساعة الحادية عشرة مساء، حين أقبلنا على منزل مدام أوليفيه وجلسنا برهة نفترش الحشائش الخضراء في الأرض المجاورة للفيلا.. وقد تأكدنا أنه لا يوجد هناك من يتعقبنا ثم دخلنا من الباب الخلفي للحديقة.

وهنا وقعت الضربة القاضية.

فقد انقض علينا عشرات من الرجال الذين ربطوا أيادينا وكمموا أفواهنا وحملونا فوق أكتافهم كأننا أكياس قطن مصري ومضوا بنا إلى منزل مدام أوليفيه وقد فتحوا باب المعمل بمفتاح معهم وأدخلونا واتجه أحد الرجال إلى الخزانة الكبرى التي اعتقدت أنهم سيحشروننا في هذه الخزنة اللعينة ويتركونا بداخلها حتى الموت آه يا بوارو.

انكشف باب الخزانة الضخمة عن سلم يؤدي إلى باب تحت الأرض، فهبطوا بنا درجات إلى غرفة فسيحة وألقوا بنا كالحشرات بداخلها.

وكانت في الغرفة سيدة طويلة القامة فوق وجهها قناع يخفي ملامح وجهها.

وأمرت المرأة هؤلاء الرجال بمغادرة الغرفة فوراً وظلت معنا بمفردها وكان واضحا لنا قوة شخصيتها ونفوذها

وأدركت أنني أعرفها فهي بكل تأكيد المرأة الفرنسية المجهولة رقم (٣)، وكانت المفاجأة الرهيبة التي أذهلتنا فقد أزاحت القناع واكتشفنا أنها العالمة الفرنسية مدام أوليفيه بشحمها ولحمها.

أوه.. يا إلهي كيف ولماذا؟ أهذا معقول؟ إنه مستحيل مستحيل أن تكون رقم (٣) هي العالمة الشهيرة مدام أوليفيه، واقتربت منا ورفعت الكمامة عن أفواهنا ولكنها تركتنا مربوطي الوثاق ثم قالت لنا في سخرية:

- هيركيول بوارو العبقري الداهية.. الذي لا يشق له غبار، لقد حذرتك بالأمس ولكنك ضربت بتحذيري لك عرض الحائط بغرورك وزهوك وعظمتك الزائفة، وها أنت تقف بين يدينا نحن عصابة الأربعة الكبار فماذا كانت نتيجة حماقتك سوى وقوعك كفأر في المصيدة

كانت مدام أوليفيه تتكلم وعيونها يتطاير منها الشرر والجنون أما بوارو فقد لاذ بالصمت كأنه يفكر في حل لتلك الكارثة المميتة التي حلت بنا.

واستطردت رقم (٣) تقول: والآن أهل لديك أمنية تريد أن تحققها قبل أن تموت؟

أجاب بوارو: نعم يا سيدتي وهذا حق تكفله الدولة للمحكوم عليه بالإعدام خاصة تدخين السجائر في اللحظة الأخيرة فهل تسمحين لي بذلك؟

قالت في سخرية: أتريد أن تخدعني حتى أفك وثاقك لتفتك بي، كلا يا بوارو العب غيرها أنا لست ساذجة، ألا

تعرف مدام أوليفيه من تكون إنها رقم ٣ في عصابة الأربعة الكبار الذين يحركون العالم كيفما شاءوا.

قال بوارو: كلاكلا يا سيدتي.. أنا لا أفكر في هذا، فقد رضخت للقدر المكتوب الذي لا مفر منه فسوف أدخن وأنا موثوق اليدين وما عليك إلا أن تدسي السيجارة بين شفتي فقط وأنا سأدخن رغم الأغلال.

- وأين علبة السجائر؟

- في سترتي.

ودست يدها وأخرجت علبة السجائر وأخرجت العلبة وتناولت سيجارة وضعتها بين شفتيها وراحت تقول: وأين إذن علبة الكبريت يا سيد بوارو المسكين؟

قال بوارو: لست في حاجة إلى علبة الكبريت أيتها العبقرية فالسيجارة التي بين شفتيك ليست سيجارة كما تعتقدين وتملكت الدهشة مدام أوليفيه واستطرد بوارو قائلا:

- أرجوك.. لا داعي لأن تتحركي يا عزيزتي.. ألم تسمعي من قبل عن السهام المسمومة؟ إن الهنود الحمر في أمريكا الجنوبية يضعون سهما مسموما في داخل قصبة غاب وينفخون في القصبة فيخرج منها السهم ليستقر في جسد عدوهم وأي وخزة خفيفة كفيلة بإزهاق روحه.

كان بوارو يتحدث في ثقة بينما كانت مدام أوليفيه تجمدت كلوح ثلج أو قل تمثال شمع في المتحف الفرنسي المعروف وراح يقول مرة أخرى:

- أما هذه السيجارة فهي عبارة عن قصبة بداخلها سهم مسموم فإذا تحركتي لاحقك السهم حيث تسيرين وإياك أن تصرخي للنجدة فعند أول بادرة للصراخ يستقر السهم في جسدك

احتقن وجه العالمة الفرنسية، ثارت أعصابها وظلت واقفة منتصبة دون حراك وأمرها بوارو في ثقة قائلا:

- أرجوكي فكي قيود زميلي.

وفعلت ما أمرت به ويداها ترتشعان.

وأمرني بوارو بأن أشد وثاقها وأكمم فمها ثم أسرعت ناحيته أفك قيوده.

وراح بوارو يتقدم نحوها وقال ساخرا:

- إن هيركيول بوارو لا يقع في الفخ بسهولة.

وبعد لحظات عصيبة غادرنا الفيلا مستللين إلى الخارج وأسرعنا إلى كاليه ولحقنا بأول باخرة سابحة إلى لندن وحين حطت بنا في مرافئ لندن قلت له:

- ماذا تنوي الآن؟ هل ستبلغ الشرطة بأمر مدام أوليفيه؟

- كلا.. لو أنني فعلت ذلك لرموني بالجنون فمن سيصدق إذن أن العالمة الفرنسية الشهيرة التي تفخر بها فرنسا هي رقم ٣ في عصابة الأربعة الكبار.

★★★

الفصل الثامن

كانت هناك حزمة من الخطابات تنتظر بوارو في منزله ومن بين هذه الخطابات رسالة بعث بها المليونير رايلاند تقطر غضبا وسخطا وقد عاتب بوارو على تخلفه عن السفر إلى أمريكا الجنوبية وتكاسله عن آداء مهمته التي أوكلها إليه.

وقلت لبوارو: إنه على حق فقد غدرت به ولم تفِ بعهدك له.

نظر بوارو ناحيتي باسما وقال في هدوء:

- إن غضبه له أسباب أخرى.. هل تذكر الرجل المجهول الذي مات في منزلنا، لقد أخبرنا أن رقم (٢) مليونير أمريكي يتمتع بنفوذ وثراء شديدين، وهذا يجعلني أعتقد أنه هو وقد أراد أن يدفعني إلى المصيدة عن طريق المال أو هكذا تصور.

- أوه تريد أن تقنعني أن رايلاند هو رقم (٢).

- نعم وإن كنت احتاج إلى برهان.

ثم استطرد قائلا: ألا ترى أن الأخلاق الحميدة تدفعني لزيارته لكي أبدي له اعتذاري؟

قلت: أخلاقك الحميدة أم سعيك لكشف أمره الغامض

وراح بوارو يبتسم ابتسامة ذات معنى.

★ ★ ★

بعد يومين رجع بوارو إلى الفندق وقد انفرجت أساريره وكاد يرقص طربا واستهل حديثه معي قائلا:

- إن لدينا يا صديقي هاستنجز فرصة ذهبية لكشف سر رايلاند وإن كنت لا أخفي عليك إنها فرصة محفوفة بالمخاطر.

- وما هي هذه الفرصة يا سيد بوارو؟

- إن رايلاند في حاجة إلى سكرتير خلال فترة وجوده في لندن فهل يروق لك أن تلعب هذا الدور؟

- أنا على أتم الاستعداد هذه فرصة ذهبية حقا للتغلغل إلى أحشائه ومعرفة أسراره.

- والخطر الذي سيحيط بك ألا تخشى منه؟

- كلا.. لا تنس أنني رجل عسكري ولا أخشى المخاطر ولكن لماذا أنت واثق أنه سيتخذني سكرتيرا له؟

- سأحدثه عنك.. وأعتقد أنه سيرضخ لرغبتي ولكن أنت في حاجة لتغيير هيئتك بعض الشيء.

أما «بعض الشيء» هذا فقد كان شيئا مذهلا فقد تحولت إلى رجل آخر بعد ساعة بين يدي بوارو وكدت أجهل نفسي وأنا أنظر في المرآة، فقد تغيرت خطوط حواجبي وحلقت شاربي وجعل أنفي معقوفا وأضفى على وجهي مسحة من اللون الأسمر بل أنه زاد بوصة في طولي بقطعة من الجلد دسها في حذائي وتطلع إلى بوارو وبدت عليه الارتياح ثم قال:

- والآن لا تنسى اسمك الجديد فأنت تحمل اسم آرثر

تيـفـيل، رعـاك الله ووفـقك ووقـاك شـر الأخطار التي ستحيط بك.

في نفس اليوم اتجهت إلى فندق سافوي لمقابلة المليونير الأمريكي وقابلني الرجل وهو يتأمل أوراقه ثم قال لي:

- إن خطابات التزكية التي بعث بها إلي مستر بوارو تؤكد لي أنك كفء فهل تتحلى بالذكاء الاجتماعي؟ إنني في الغالب أقيم مأدبة كبيرة لصفوة المجتمع فهل لديك القدرة على ترتيب أماكنهم على المائدة طبقا لأوضاعهم الاجتماعية؟

فأجبت: إن لي في هذا الشأن خبرة كبيرة.

- حسنا.. بمقدورك أن تتسلم فورا مهام عملك منذ اللحظة

وبعد ٤٨ ساعة انتقلنا إلى قصر لومشاير في هانون، فقد كان المليونير يستأجره لمدة ستة أشهر فترة وجوده في لندن، أما مهمة وظيفتي فقد كانت سهلة ممتعة لا تشغل وقتي سوى يوم واحد أو يومين فقط حيث إن المليونير رايلاند اعتاد إقامة مأدبة واحدة في عطلة الأسبوع يدعو إليها لفيفا من رموز المجتمع، أما بقية الأيام فلا يوجد فيها عمل أزاوله، وكان لدى المليونير الأمريكي سكرتير يدعى مستر ابيلياي لم أكن ألتقى به إلا نادرا، إذ كان دائما ترافقه سيده في جوالاته ورحلاته وأسفاره، وكانت توجد أيضا مس مارتن كاتبة الاختزال فكنت أراها أغلب الأيام.. وكانت هي بدورها لا تغادر القصر وكنت أفهم من

تلميحاتها العابرة أنها تكره المليونير الأمريكي وإن ظلت دائما على حذر لا تكاشفني بما في نفسها، وكان في القصر خادمان آخران جاء بهما المليونير، أما الذي أثار انتباهي حقا فكان الوصيف الخاص للمليونير المعروف ديفيز، ومرت ثلاثة أسابيع دون أن ألاحظ ما يؤكد صدق نظرية بوارو أن رايلاند هو العضو رقم (٢) في منظمة الأربعة الكبار، وظننت أن بوارو قد جانبه الصواب.

وفي أحد الأيام سافر مستر رايلاند إلى العاصمة لندن برفقة سكرتيره الخاص إبيلياي أقبلت على كاتبة الاختزال مس مارتن وأثار الدموع تطل من عينيها وقالت لي في انفعال وتوتر:

- لقد قررت أن أستقيل يا ميجور تيفيل.

وحين سألتها عن سبب قرارها المفاجئ أجابت في ضيق وأسى أن مستر رايلاند رجل لا يطاق.. إنه يثور لأتفه الأمور ويعاتبني دائما في أمور لا علاقة لي بها.. ولهذا لن أظل هنا بعد اليوم لحظة واحدة.

وحاولت أن أهدئ من روعها فقالت:

- ألا تعرف ما حدث بالأمس؟ إنني مسئولة عن فض خطاباته لأعرضها عليه ومن بين ما يرد إليه خطابات ذات غلاف أزرق اللون، وفي ركنها الأيسر الرقم (٤) مكتوب بخط دقيق «وكنت أرتعد فزعا وهي تقول هذا» وقد نبهني مستر رايلاند ألا أفض هذه الخطابات وأن أضعها أمامه كما هي.

ومضت تقول في إنفعال:

- بالأمس لم أنتبه لرسالة من هذا النوع فقمت بفضها وإذا تبينت خطئي ذهبت إليه بالرسالة وأنا أبدي أسفي فثار وهاج ضدي ثورة عنيفة ووصفني بأقذع الشتائم. أنا لا أنكر أنني أخطأت ولكن ليس من حقه أن يشتمني.

فقلت: لعل في الرسالة سرا لا يحب مستر رايلاند أن يعرفه أحد.

- بالعكس.. أنها رسالة لا تحتوي على سر من الأسرار.

- إذن فقد قرأتها..؟ ماذا بها يا ترى؟

أجابت مس مارتن: إنني أذكر كل كلمة فيها ونصها هو «سيدي العزيز.. الشيء المهم حاضرا ومستقبلا هو رؤيتك للأرض بما فيها المحجر.. والثمن المعروض للصفقة ١٧ ألف فرنك والعمولة ١١ في المائة ولكن ٤ عمولة مناسبة.. آرثر ليفر شام.

وأردفت مس مارتن تقول والغضب يتملكها:

- أرأيت...؟ رسالة عادية لا أهمية لها فلم يثور ويغضب؟ أوه أنه وغد قذر وحش ولهذا لابد أن استقيل.

وسهرت ليلتي أبحث في نص الرسالة عن خيط يقودنا إلى هذه العصابة اللعينة وطبعا فإن رسالة تأتي لهذا الرجل فمن الطبيعي أنها تحتوي على أسرار غامضة وطلاسم تحتاج إلى شامبليون لفك رموزها كما نجح في فك رموز حجر رشيد المصري ورغم محاولاتي الحثيثة في هذا الأمر إلا أن جميع محاولاتي باءت بالفشل في إماطة

اللثام عن سر مضمون الرسالة الغامض، وأخيرا قبيل انبلاج خيوط الفجر بلحظات توصلت إلى حل الشفرة التي كتبت بها الرسالة، فإذا أردنا كشف الحقيقة فليس أمامنا سوى أن نعود إلى مفتاح الشفرة وهو الرقم (٤) المكتوب في الركن الأيسر من الغلاف، فمعناه أن الكلمة الرابعة هي المقصودة، إذن علينا أن نشطب ثلاث كلمات ونعترف بالرابعة وبذلك يكون نص الرسالة الحقيقي «المهم رؤيتك - المحجر - ١٧ - ١١ - ٤ - ليفرشام»

إن الذي بعث بالرسالة يدعى ليفر شام وربما كان اسم رمزي اتفقوا عليه وهو يقول في سطور الرسالة إن من الضروري أن يرى رايلاند، أما الأرقام الواردة في الرسالة سهلة الوصول إلى معناها فمثلا رقم ١٧ يدل على تاريخ اليوم أي أنه يقصد يوم ١٧ أكتوبر، وهو اليوم التالي، ورقم ١١ هو موعد المقابلة أما رقم ٤ فربما كان يرمز لتوقيع عضو المنظمة صاحب الرقم (٤) أو رمز المنظمة مثلا.

وتبقى بعد ذلك كلمة «المحجر» وكنت أعرف أن في أقصى الحديقة محجر على مسافة نصف كيلو من القصر ونستخلص من هذا أن نص الرسالة هو أن المقابلة ستتم غدا ١٧ أكتوبر في الساعة الحادية عشرة.

وكدت أرقص طربا لهذا الاكتشاف وبعثت خطابا لبوارو بهذا الأمر ألقيته بنفسي في صندوق البريد.

★ ★ ★

حين دقت الساعة واستقرت عقاربها على العاشرة والنصف من مساء الليلة التالية قال لي مستر رايلاند إنه يشعر بالإرهاق وسمح لي بالانصراف، صعدت إلى غرفتي زاعما أنني سأخلد للنوم ولكنني تسللت إلى الحديقة من سلم خلفي في خلسة وأسرعت الخطى في اتجاه المحجر، وكنت من وقت لآخر انظر إلى ناحية القصر فلمحت مستر رايلاند يغادر مكتبه من الباب المؤدي إلى الحديقة، فأدركت أنه في طريقه في الموعد المحدد، فأطلقت ساقي للريح وبلغت المحجر وأنا ألهث أنفاسي واختفيت خلف الأشجار أراقب ما يحدث عن كثب.

وبعد عشر دقائق وصل مستر رايلاند إلى المحجر واضعا قبعه رأسه فوق جبينه والسيجارة الضخمة في فمه وسرعان ما اختفى في مدخل المحجر الذي يسوده الظلام وكان لابد أن أتسلل من مخبئي عدة خطوات لأستمع إلى حديثهم.

وفجأة سمعت صوت مستر رايلاند وهو يقول:

- أرفع يديك وإياك أن تتحرك..

لقد كنت متواريا وراء صخرة في مدخل المحجر تحجبه الظلام عني ولهذا لم أنتبه إليه وهو يدور حولي.

وأحسست بفوهة المسدس تلتصق برأسي وهو يقول:

- اذهب به إلى مدخل المحجر يا ديفيز.

وبادر جورج فكممني وأوثق يديّ.

وعاد مستر رايلاند يتحدث معي بصوت متحشرج حتى

ظننت أنه شخص آخر وقال:

- لقد حانت نهايتك أنت وصديقك بوارو، سأقذف بك في البحر لتأكلك أسماك القرش وبوارو معك، هذا هو مصير كل من تسول له نفسه أن يتحدى الأربعة الكبار.

واستطرد قائلا: إنني في انتظار صديقك لكي يلحق بك.

وبعد لحظات أقبل بوارو وكنت مكمم الفم لا أستطيع أن أحذره، واقترب مني بوارو يحملق بعينيه لعله يراني وسمعت رايلاند يقول في غضب:

- ارفع يديك إن مسدسي مصوب إليك.

وانقض ديفيز على بوارو ووثق يديه وصاح بوارو:

- أين صديقي هاستنجز؟ هل هو هنا؟

- نعم لقد سبقك إلى المصيدة.

وأطلق بوارو ضحكة ساخرة وقال:

- إنك مخطئ يا عزيزي فأنتم الذين وقعتم في الفخ.

قال رايلاند: هل تهذي يا بوارو؟

ضحك بوارو في سخرية وقال:

أنني لا أهذي، فلو أنك بصرت حولك لشاهدت العشرات من رجال الشرطة يحاصرون المكان.

وأطلق بوارو صفيراً سرعان ما ظهر رجال الشرطة وألقوا القبض على رايلاند وصديقه ديفيز وقال لي بوارو ونحن في طريق العودة للفندق:

- الحمد لله أنك عدت سالما فأنا كدت أتسبب في موتك.

- ولكنني تمكنت من خداعهم فترة طويلة.

- أنت في هذا مخطئ يا عزيزي هاستنجز فأنا تعمدت أن أغير ملامحك لتكون طعما لهم ويظنون أنك طعما لي وقد دفعوا إليك بالسكرتيرة ذات الشعر الأحمر لأنهم يعرفون أنك مولع بذوات الشعر الأحمر.

- أوه هل تقصد أنها عميلة في هذه العصابة؟

- نعم وأما هذا الخطاب واعتراضها على أسلوب المليونير وتهديدها على الاستقالة ما هي إلا حيلة ماكرة لاصطيادنا

في أثناء تلك اللحظة دخل علينا المفتش جاب قائلا:

- لقد حدثت أخطاء في تنفيذ الخطة فإن المليونير رايلاند تمكن من الهرب.

سأله بوارو: ماذا تقصد؟ هل تمكن من الهرب؟

- كلا.. فقد استطاع خداعنا حيث أوفد رئيس الخدم جيمس الذي قلد صوته وانطلت الخدعة على مستر هاستنجز.

قلت: لقد أدركت فعلا غرابة صوته في أذني.

وقال جاب في أسى:

- للأسف أفلت منا رقم (٢) فعندما ذهبت إلى القصر وجدت المليونير رايموند نائما في فراشه.

فقال بوارو: لا عليك سوف يقع في المرة القادمة.

الفصل التاسع

كان بوارو دائما يتحلى بالصبر على الرد ضد خصومه وكثيرا ما كان يردد أمامي اصبر يا عزيزي لكي تدرس عقلية خصمك وتعرف أسلوبه وطريقته في العمل.

والحقيقة أنني كنت أتضايق كثيرا من هذا الأسلوب فكم من انتصارات ساحقة حققتها عصابة الأربعة الكبار علينا ونحن مكتوفو الأيدي لا نحرك ساكنا.

- إن هؤلاء الأوغاد ارتكبوا جريمتي قتل، واختطفوا هاليداي وكادوا أن يتخلصوا منه ولولا براعة بوارو لحدث ما أرادوا وكنا في عداد المفقودين وبالطبع كان سيسبقنا إلى الموت مستر هاليداي.

على أية حال دعك من هذا كله، فقد وصلتنا رسالة عاجلة من المفتش جاب صديق بوارو وأشهر رجال سكوتلاند يارد يطلب من بوارو سرعة مقابلته لكي يطلعه على تفاصيل جريمة غريبة أطلقت عليها الصحف «لغز الياسمين الأصفر»

كان ذلك بعد شهر من مغامراتنا داخل قصر المليونير الأمريكي، وتركنا لندن واتجهنا إلى قرية هاركيت هاندفورد مسرح تلك الجريمة الغامضة.

وفي أثناء جلوسنا في القطار المتجه بنا إلى هناك قال بوارو:

- لاشك أنك تابعت في الصحف تفاصيل الجريمة بعناية ودقة فهلا رويت لي ما حدث فيها؟

قلت له: ليكن بداية حديثي عن مستر بنيتر فهو في الخامسة والخمسين من العمر يعشق الرحلات والأسفار، وفي السنوات العشر الأخيرة عاش في إنجلترا فترات قليلة لكنه عدل فجأة عن غرامه بالرحلات بعد أن أصابه الملل والضجر واستقر في وطنه واشترى بيتا صغيرا في ماركيت هاندفورد أملا في أن يعيش ما تبقى له من عمر في راحة وهدوء.

واستطردت أقول لبوارو: كان لهذا الرجل ابن أخ يسمى جيرالد، وأرسل له عمه خطابا يناشده أن يقيم معه ويقتسم معه داره وجيرالد هذا كان فنانا مغمورا وبسيطا فلبى دعوة عمه على الفور نظرا لظروفه الاجتماعية وقضى مع عمه حوالي سبعة أشهر قبل وقوع المأساة الأليمة.

كان بوارو ينصت إلى ما أقول باهتمام بالغ فتابعت تلخيص الحادث قائلا: كان بيت مستر بينتر يزدحم بالخدم وقد وصل عددهم حوالي ستة فضلا عن خادمه الصيني آه لينج.

وفي يوم الثلاثاء الماضي أحس الرجل بعد فراغه من طعام العشاء أن به وعكة صحية ألمت به وراح أحد الخدم يستدعي الطبيب وقابله مستر بينتر في مكتبه بعد أن رفض مقابلته في غرفة نومه ودار بينهما حديث لا يعرفه أحد ولكن قبل انصراف الطبيب كوينتن طلب المشرفة على المنزل وأخبرها أنه أعطى مستر بينتر حقنة تحت الجلد

نظرا لضعف نبضات قلبه وقد نبه عليها ألا يزعجه أحد، ثم سألها عن الخدم وكم من الوقت قضوه في خدمة الرجل ومن أين جاءوا ولماذا وقع عليهم الاختيار؟

وألقى عليها وابلاً من الأسئلة الغريبة التي أثارت دهشتها، وأردفت أقول لبوارو:

في صباح اليوم التالي زكمت الأنوف داخل المنزل رائحة لحم يحترق ومصدره حجرة المكتب، وأسرعت تفتح الباب لكن فشلت حيث كان مغلقا من الداخل فأطلقت صرخة مدوية واستغاثت بالخادم الصيني آه لينج ومستر جيرالد ابن أخي الرجل، وحين تمكنوا من فتح الباب كانت المفاجأة الرهيبة التي أذهلتهم وتجمدوا في أماكنهم، فقد كان المشهد فظيعا لا يستطيع أحد أن ينساه، مادام حيا فماذا شاهدوا؟

شاهدوا مستر بينتر منكبا على وجهه في المدفأة التي تعمل بالغاز وقد تفحم وجهه حتى بات من المستحيل التعرف على ملامحه.

وفي بداية الأمر اعتقدوا أن الحادث وقع قضاء وقدرا، وراح البعض يوجه اللوم للطبيب الذي حقنه ثم تركه دون إشراف، ولكن سرعان ما اكتشفوا أن هناك في الأمر شيئا غريبا لقد كانت على الأرض جريدة يبدو أنها سقطت من يدي الرجل المسكين، وكانت إحدى صفحاتها كلمات مكتوبة بالحبر ولكن كان الخط باهتا يصعب قراءته وكانت هناك منضدة للكتابة بجوار المقعد الذي كان يجلس عليه الرجل،

أما سبابة يده فقد كانت ملوثة بالحبر وكان واضحا أن مستر بينتر قد دس يده داخل زجاجة الحبر لأنه عجز عن الإمساك بالريشة، وراح يكتب على الصحيفة بضع كلمات تقول: «الياسمين الأصفر» ولم يكتب شيئا آخر، ولهذا أطلقت الصحف على الحادثة «لغز الياسمين الأصفر» وإن كانت لا توجد علاقة بين الجريمة وهذه الكلمات.

وهنا قال بوارو في تهكم:

- مادمت ترى أنه لا علاقة بينهما فلابد أن الأمركذلك

ونظرت إليه أتأمل سخريته فتظاهر بجدية ما يقول.

فعدت أقول: وقد اكتشفوا أمراً يدعو للإثارة إذ أنهم اتجهوا باللوم الشديد على الدكتور كونتين فهو بداية لم يكن طبيب القرية الأصيل، لكنه طبيب احتياطي للدكتور بولثيو الذي كان يقضي إجازته السنوية، ثم إن تصرفه مع مريضه اتصف بالغموض والإهمال وهو ما أدى إلى الوفاة، ثم اكتشفوا أن الطبيب كونتين لم يفحص الرجل سوى مرة واحدة قبل وقوع المأساة، وقد روى الطبيب أنه حين اختلى به في قاعة مكتبه أكد له أنه لا يشكو من أية آلام، لكنه تظاهر بأنه متوعك لأنه حين تناول كأساً من الكاري تبين أن له مذاقاً غريباً فتعمد أن يصرف خادمه الصيني آه لينج بحجة ما، وانتهز الفرصة وصب الكأس في إناء أخفاه بنفسه، ناوله للدكتور أن يفحص ما بداخله، وتبين فعلا أن هناك شيئا ما أضيف إلى الكأس، وعلى الرغم من أن مستر بينتر زعم أنه لا يشكو من أي ألم إلا أن الدكتور

كونتين أعطاه حقنة استركتين بعد أن تبين أن هناك هبوطا في قلبه

وانهيت حديثي مع بوارو قائلا:

- وللأسف أثبتت التحاليل أن الكاري كان ممزوجا بكمية من الأفيون تكفي لقتل رجلين.

وسألني بوارو: وما هو رأيك يا صديقي هاستنجز؟ ماذا فهمت من هذا كله؟

قلت: من العسير أن أرد على سؤالك فربما وقع الحادث قضاءا وقدرا وربما دس أحدهم السم له.

- أتعتقد أن الجريمة تمت مع سبق الإصرار والتعمد.

- لا أدري يا بوارو، حتى الآن من الصعب أن أزعم لك ذلك.

- المشكلة الآن يا هاستنجز هي كيف أكشف النقاب عن «لغز الياسمين الأصفر» فهذه هي جوهر القضية ومفتاحها.

- أنا لا أشاطرك الرأي يا عزيزي بوارو، فأنا أعتقد أنه لا علاقة بين الحادث والعبارة المكتوبة.

- إذن لنترك العبارة جانبا ونتأمل معا موضوع الأفيون.

فقلت: حسنا ولهذا أسألك يا سيد بوارو أيها العبقري الداهية من الذي دسه له في المشروب؟ هل هو الخادم الصيني؟ ولماذا؟ وما هي مصلحته في ذلك؟ أهو مثلا عضو في إحدى المنظمات السرية؟

ثم قلت ضاحكا أهي منظمة الياسمين الأصفر ها ها ها؟

ثم قلت لدينا بعد ذلك ابن أخ القتيل جيرالد بينتر، ما علاقته بالجريمة؟

قال بوارو: قرأت أن جيرالد هو الوريث الوحيد لعمه وقد تناول عشاءه خارج المنزل في تلك الليلة.

قلت: لعله دس الأفيون بالكاري وحرص على تناول العشاء خارج المنزل حتى لا تحيط به الشبهات.. وحين عاد ليلا وجد مكتب عمه مضاء بالكهرباء.. فأحس أن محاولته فشلت فتسلل إلى مكتبه وألقى به في نيران المدفأة.

اعترض بوارو قائلا: وهل يعقل أن يستسلم المرء للاحتراق هكذا دون أدنى مقاومة أو استغاثة.

فقلت مستغربا: إذن ما هو رأيك يا بوارو؟

فأجاب: لنفرض أن الحادث جريمة قتل وليست قضاء وقدرا فلماذا اختار القاتل هذه الوسيلة دون غيرها؟ ألا يحتمل أن يكون الغرض من وراء ذلك هو تشويه الوجه حتى لا يتعرف عليه أحد؟

هتفت قائلا: رباه أخبرني يا بوارو ماذا تقصد؟ أتريد أن تقول أن القتيل ليس هو مستر بينتر نفسه؟

قال: أبحث عن الغرض فإذا كان القتيل ليس هو مستر بينتر فمن يا ترى القتيل الحقيقي؟

- لقد رويت تفاصيل الحادث بدقة فائقة لكنك للأسف أغفلت شيئا هاما.

- ماذا تقصد يا بوارو؟

قال: في نهاية عبارة الياسمين الأصفر التي كتبها القتيل على الصحيفة الملقاة بجواره كان هناك خطان أشبه بزاوية قائمة.

فقلت: وماذا في ذلك؟

قال: ربما كان هذين الخطين هما الرقم (٢) والقتيل أراد أن يكتب الرقم (٤) ففشل في ذلك.

قلت: أتريد أن تقول أنه أراد الإشارة إلى الأربعة الكبار؟

أجاب: ربما لهذا أريد أن أدرس هذا الاحتمال.

★★★

الفصل العاشر

كان المفتش جاب رجل سكوتلاند يارد ينتظرنا على رصيف المحطة وصافحنا بحرارة ثم اصطحبنا إلى الفيلا مسرح الجريمة وهي مكونة من طابقين وتحيط بها نباتات الياسمين.

وسأل بوارو المفتش جاب: هل هذا الحادث قضاء وقدر يا جاب؟

قال جاب: لولا أن الكاري المسمم لاعتبرتها قضاء وقدرا.

ودخلنا قاعة المكتبة وسأله بوارو:

- هل كانت النافذة مفتوحة؟

- لقد أكد الخادم الصيني أن النافذة كانت مغلقة بينما أكد الطبيب كونتين أنها كانت مفتوحة!! ثم أكد الطبيب أنه أغلق الباب لكنهم وجدوه في الصباح مغلقا بالمزلاج من الداخل، فمن الذي فعل ذلك؟ أهو مستر بينتر أم القاتل؟

وأردف جاب يقول: إذا كان الرجل مات مقتولا فمعنى هذا أن القاتل دخل الغرفة من الباب أو النافذة فإذا كان من الباب فهو من أهل المنزل، وإن كان من النافذة فهو أجنبي غريب،

ومضى بوارو يسأل جاب: وماذا عن مفتاح الباب؟

- كان ملقى على الأرض وربما سقط في لحظة الهرج والمرج.

- ضحك بوارو وقال: كل الشواهد متناقضة، النافذة

مغلقة ثم يقال مفتوحة، الباب مغلق من الخارج ثم يقولون بل من الداخل، القاتل من أهل المنزل ثم يقال بل أجنبي غريب كل دليل له تفسيران!!

وأردف بوارو يقول: والآن ماذا عن جيرالد ابن أخ القتيل ما هي أوضاعه المالية؟

- إنه فنان مفلس وينفق في سخاء شأنه شأن الفنانين.

- من الذي تتهمه يا عزيزي جاب؟

- أتهم أو بمعنى أدق اشتبه في أمر الخادم الصيني الذي فشل في التخلص منه بالسم فألقى به في المدفأة.

وقال بوارو: وما هي دوافعه؟

- ربما بدافع الانتقام مثلا؟

- هل اكتشفتم أن تحفاً أو مجوهرات في البيت تعرضت للسرقة؟

- كلا.. لكننا اكتشفنا أن مستر بينتر كان معتكفا على تأليف كتاب يحكي فيه تجاربه الطويلة في أسفاره ورحلاته لكننا تأكدنا من سرقة المسودات فقد علمنا أنه أوشك على الانتهاء منه.

- كيف علمتم بأمر هذا الكتاب؟

- من خطاب بعث به الناشر إليه عقب اغتياله.

- وما هو عنوان هذا الكتاب؟

- «اليد الخفية في بلاد الصين».

- أوه.. هلا قابلتني بالخادم الصيني فورا.